التاريخ والقانون والحداثة
(2)
الشيخ محمد بيرم الخامس والقانون الوضعي (الخاص)

بقلم الأستاذ : محمد بن الأصفر المحامي

لقد أخذ السّفر إلى أوروبا اثني عشر عاما من حياة المثقف التونسي الشيـــخ محمـــد بيـرم الخامس الذي تردّد عليها في خمس مناسبات (1) ولقد عرف العرب السّفر منذ القدم وقد أفرز ظاهرة أدبية تعرف بأدب الرّحلة (2) إلى جانب الرحلة من أجل الحجّ أو تلقي العلم (3) ... ... أو السّفارة (4) ... ... أو بعض الأغراض الأخرى المختلفة .

لكن ، ومنذ رفاعة رافع الطّهطاوي (5) أصبحت الرحلة كأدب تقوم بالمقارنة بين عالمين ، عالم متحفّز وآخر جاهل وذلك بعد أن كانت الرّحلة تقوم على وصف غرائب المخلوقات (6) والعالمان هما أوروبا والشرق العربي الإسلامي .

ولقد انخرط محمد بيرم الخامس في هذا الزّمط من أدب الرّحلة فجاء كتابه (صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار) على خطي كتاب الطهطاوي الموسوم : (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) من حيث وصف النظم الأوروبية فمن هو الشيخ محمد بيرم الخامس ؟

وما هو مدى إستيعابه للنّظم الأوروبيّة ؟

أولا : الشيخ محمد بيرم الخامس :

هو سليل عائلة بيرم التي تعدّد فيها المؤلفون والكتّاب خصوصا سلسلة المحمّدين (جمع : محمّد) التي نبغ منها خصوصا محمد بيرم الثاني (1749 ـ 1831) وهو نقيب الاشراف في زمنه وقد كانت له مؤلفات نذكر من بينها : (التعريف بأجداد البيْرَميّين) وكذلك (حسن النبأ في جوهر التحفظ من الوباء)(7) .. كما نبغ من نفس العائلة محمد بيرم الرابع (1805 ـ 1861) ومن مؤلفاته المتداولة اليوم انطولوجيا شعرية ذات أهمية موسومة بعنوان (الجواهر السنيه في شعراء الديار التونسية) (8) ... كما أنه لم يتم عملا آخرا بعنوان (التراجم المهمّة للخطباء والأيمة)(9) ... ... وله فتاوى مختلفة مثل تلك التي تعلّقت بحلّ غنيمة الصيد بالرصاص...الخ ..

... .

في هذا الإطار ولد وترعرع محمد بيرم الخامس (1840 ـ 1889) الذي درس بالزيتونة كأبناء عصره وهو ابن فلاح كبير ، وقد عمل على رأس جمعية الأوقاف (10) وشارك في إعداد

برامج التعليم بالصادقية وكان مديرا للمطبعة الرسمية وفي نفس الوقت مديرا الجريدة الرائد التونسي ... ولقد قام بتنظيم المستشفى الصادقي (عزيزة عثمانة) على غرار المستشفيات الأوروبية التي زارها كمريض الجسم .

وقد كان مولعا بالتأليف وما يهمنا من تأليفه خاصة كتاب (صفوة الإعتبار ومستودع الأمصار والأقطار) (11)

ثانيا : طلائعية الشيخ محمد بيرم الخامس

إن الظروف الموضوعية التي عاش فيها محمد بيرم الخامس لم تكن ترشحه ليكون أكثر من مثقف تقليدي بعيدا عن الهموم العامّة ، لولا ما اتصف به من الوعي ....

فلقد كان الرّجل يؤمن بالحرية فهو الذي أشار (نصح) على الباي بأن يعطي جرعة من الحرية للشعب وكان ذلك عند مغادرته إياه ليلة سفره ، فلما أجابه بأن الرّعاع ليسوا حرّيين بالحرية أجابه بما معناه أنه لابد من بداية لكل شيء ومن ذلك فإنه لابد من بداية للحرية (12) ... كما أن بيرم الخامس حين عايش ظروف العمّال الفلاحيين باعتباره ابنا المالك فلاحي كبير ، لم ير في ذلك أمرا عاديا ومنهجا للحياة وطريقة للعلاقات بين المالك الفلاحي وعماله بل أنه قد التزم بالدفاع عن أهل الأرياف (13)

ولم نستعرض هذا - الشذوذ - (بالمعنى الإيجابي) في منهج حياة محمد بيرم الخامس إلاّ من أجل التمهيد لعرض مظاهر من ثقافته القانونية التي لم تكن وليدة عصره ولا بيئته ... ... فالرجل زيتوني الثقافة والتكوين فمن أين جاءت تلك الإمكانيات الفكرية التي يستوعب آليات الفكر والممارسة القانونيين في البلاد الأوروبية فيصفها ويتحدث عنها في كتابة : صفوة الإعتبار ... ؟ ... ؟

إن المؤسسة الوحيدة التي درّست القانون الوضعي والتي عاصر خريجيها وخاصة منهم الوزير خير الدين (1889) والجنرال حسين (1820 - 1887) وغيرهما قد سجنت نفسها في القوانين العسكرية (14) وهي لا تمت بصلة لما يدير الحياة المدنية ... ... ونقصد بذلك المدرسة العربية بباردو !؟ أمّا المدرسة الصادقية فقد رأينا أنه من بين واضعي برامج التعليم بها ، فهو الذي أفادها وليس العكس ...

وواضح أن الرّجل ذو اطلاع ، مما يجعلنا لا نوافق على ما ذهب إليه الدكتور فتحي القاسمي من أن وعي محمد بيرم الخامس بمشروع شط الجريد أو البحر الافريقي الداخلي هو قد كان مجرّد تمثل لمشروع قناة السويس للمهندس فرديناد دي ليسابس (15) ... ... بل إننا نعتقد وأنه لا مانع من اطلاعه على ملابسات المشروع ان لم تكن كاملة فعلى معظمها سواء في مظهره العلمي أو السياسي والاستعماري والاستراتيجي وهو ما كان لنا شرف بسطه باطناب بدائرة المعارف التونسية (16)

ولكل ما سبق بيانه قلنا أن الرّجل قد كان طلائعيا باعتباره قد تجاوز الأطر التقليدية لبيئته وثقافته ليستوعب ما يتجاوزها مكانا وزمانا ...

ولقد أباح بيرم الخامس عن سرّ هذه التقدمية بنفسه حين قال : « إن ازدهار سوق العلم

رهين الإطلاع على مختلف المعارف ومختلف الفنون » (17) وان صيغة الإطلاع التي استعملها بيرم « مختلف العلوم » و « مختلف الفنون » تعني تجاوزه للمفهوم التقليدي « للعلم » عند أمثاله سواء من خريجي الزيتونة أو الأزهر بمصر أو القرويين بفاس بالمغرب أو غيرها من أن العلم هو فقط ما اتصل بالدين الإسلامي (18) ليمانق أفقا أرحب يستوعب آليات القانون الوضعي الأوروبي كما سنرى ذلك في الإبان .

ثالثا : الخصوصيات الحداثية عند بيرم الخامس :

إن الشيخ محمد بيرم الخامس الذي انتبه إلى وجود كتب باللسان الفرانساوي (أي الفرنسي) بمكتبه جامع الزيتونة (19) في عصره ... ... سيكون رائدا بالنسبة لغيره في الحديث عن أدوات وآليات القانون الوضعي الفرنسي والأوروبي بصفة عامّة ... ...

وإذ دأب على ذلك المصلحون الذين تعاطوا مثل ذلك الصنيع فما الذي سيمتاز به عنهم محمد بيرم الخامس ؟ ... أو ما هي خصوصيات كتابات م . بيرم الخامس ؟

إن محمد بيرم الخامس ، من خلال صفوة الاعتبار لا يختلف أدبيا عن الطهطاوي وأحمد زكي ومحمد السنوسي في كونه قد ساهم إلى جانبهم في صياغة أدب مشكلي ، ففي أوروبا عالم متقدم يبهر الأبصار والأذهان ... وهو عالم آخر بمنظار الدّين بالنسبة للأمة الإسلامية كما يقول الأستاذان محمد القاضي وعبد الله صولة (20)

كما أن محمد بيرم الخامس لم يختلف عمن ذكر في خوْض موضوع اصلاح النظام السياسي (21) ونظيف إليهم من تونس آخرين أمثال : خير الدين التونسي وأحمد بن أبي الضياف (1803 ـ 1874) ... ... أو في خوض موضوع الخلافة (22) وهو الآخر يهم النّظم السياسية الإسلامية ... ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذه المباحث الحداثية ذات بعد ومحتوى قانوني لكن من وجهة نظر القانون العام / droit public الذي هو أقرب إلى العلوم السياسية منها إلى الحقوق وان كانت هي محتواه الرئيسي

ولكن هناك إلى جانب القانون العام فرع ثان رئيسي وكبير وهو القانون الخاص / droit privé وهذا هو الأقرب إلى الفقه فنحن لا نكاد نجد كُتّابا في القرن التاسع عشر الميلادي في العالم العربي يكتبون عنه ، ربما لأن التصادم مع الفقه سيكون أبرز للعيان باعتبار الحاجة اليومية لهذه القواعد في معاملات النّاس فيما بينهم ، ناهيك أن الإدارة الاستعمارية في الجزائر لم تر بدا من تعريب تحفة الحكام للفقيه ابن عاصم حتى يطلع عليها القضاة الفرنسيون المطالبون باحترام إرادة الأهالي الجزائريين في الاقتضاء إلى أحكام التشريع الإسلامي طبق أمر 31 ديسمبر 1866 (23)

هذا الفرع من القانون ، أي القانون الخاص والذي هو يتعلق بمصالح الخواص ويهم علاقات الأفراد ببعضهم بعضا سواء اتصلت هذه العلاقات بالأحوال الشخصية أو الالتزامات والعقود ، مدنية كانت أو تجارية (24) هو الذي سيهتم به محمد بيرم الخامس فيمتاز بذلك عن غيره من الرحالة العرب مشارقة ومغاربة حيث لم يستهوهم إلا القانون العام ، الذي يهم الحكومة ونظامها العام ... والقواعد التي يمارس الملوك على أساسها الحكم ... وتنظيم الوظائف العامة من إدارة

وقضاء ودفاع وجباية ومالية (25)

وهذا القانون الخاص الذي سيهتم به محمد بيرم الخامس لا سبيل إلى إرجاعه إلى أصول إسلامية لتصبح الكمبيالة ما كان يعرف بالسَّفْتَجَة (26) على غرار ما قام به الملفقون الذين يسمون الشورى بالديمقراطية (27) والمفهومان لا يمتان لبعضهما بصلة ...

وهذا القانون هو حصيلة لمسيرة فكرية غربية وأوروبية ليس بإمكان الشيخ محمد بيرم الخامس أن يستوعب آلياته لولا نزعته للإطلاع ووعيه بضرورة التفتّح على حضارة المتقدمين ولو كانوا كفارا .

فهو قانون (في نسخته الفرنسية) صدر سنة 1804 جامعا للمبادئ القانونية الأساسية للنظام القديم المشابه للقانون الروماني وقوانين اختارها نابليون ومستشاروه من بين القوانين التي صدرت أيام الثورة الفرنسية ... وأهم خاصياته : « أنه يضع في عبارة مفهومة وقالب حازم معالم مجتمع متمدّن واقعي قائم على المساواة الإجتماعية والتسامح الدّيني واحترام الملكية الخاصة والحياة العائلية الكريمة » (28)

ورغم غرابة هذا الفضاء المعرفي فإننا سنجد الشيخ محمد بيرم الخامس يصول ويجول في أرجائه ... ...

رابعا : استيعاب بيرم الخامس لآليات القانون الوضعي الأوروبي :

سنتوخى منهجا بسيطا في غرض التسلسل التاريخي لاستيعاب محمد بيرم الخامس لآليات القانون الوضعي الأوروبي وذلك بالرجوع إلى سنوات ظهور هذه الآليات بصفة رسمية في البلاد التونسية حتى نقف على مدى تقدمية الرجل وذلك بالمقارنة إلى تاريخ تواجده بأوروبا ... ...

ان الاثني عشر عاما من حياة بيرم الخامس التي قضاها في أوروبا قد تراوحت بين سنة 1875 وسنة 1878 وسنة 1879 وسنة 1881 وسنة 1887 (29) وكان في كل مرّة يستوعب ويستفيد ويكتب ... بل ويطبق مثلما فعل وهو ينظم المستشفى الصادقي . فماذا وصف من بين الآليات القانونية الوضعية الأوروبية ؟

رابعا 1 : البنوك ، الشيكات ، الفوائض والكمبيالة

إن البنك (المصرف) هو كل مؤسسة تقوم عادة بإيداع أموال العموم ، وبعمليات البورصة ، وبعمليات الصّرف بصفته وسيطا وهو يؤمن للمودعين خدمات منها تغطية الصكوك (الشيكات) و السندات (الكمبيالات (الخ ... ... (30)

وليس بوسعنا أن يثبت وجود مؤسسة بنكية في تونس قبل سنة 1879 حيث فتح بنك لندن بتونس London bank tunis بابه يوم 9 أكتوبر لقاء عمولة دفعها الوزير خزندار (31) .. ومع التداخل الفرنسي بتونس بدأت المؤسسات البنكية تتضاعف مثل الشركة الجزائرية للقرض والبنك Compagnie Algerienne de credit de banque التي كانت تمثل الاتحاد الباريسي union parisienne والتي كانت تراقب مناجم الحديد بالجريصة ومناجم الفسفاط بقفصة (32) ... أما البنك التونسي Banque de tunisie فهو وريث مؤسسة بنكية يعود تأسيسها إلى سنة 1884 (33) ... وفي سنة 1904 ظهر بنك الجزائر (34) وفي سنة 1919

ظهر البنك الشعبي (35) الخ ... ...

ويرتبط ظهور الشيكات والفوائض (الخدمة ـ Interet) خاصة بالبنوك وبالادخار .

رابعا : 1 ـ أ ـ الشيكات :

رأينا أن البنوك تغطي وتدفع الشيكات ، باعتبار أن الشيك هو سند يأذن بمقتضاه المودع المؤسسة البنكية بأن تدفع للحامل مبلغا من أمواله المودعة لديها (36)

وان الشيك التونسي لم يظهر قبل سنة 1914 (37) بالرغم من تواجد البنوك قبل ذلك التاريخ مثلما سبق بيانه .

إلا أن الشيخ محمد بيرم الخامس كان قد تحدث عن الشيك البنكي باعتبار هذه الوسيلة « الأوراق » خفيفة المؤونة (كذا) وتروج في سائر الأقطار ، فرنسا وإيطاليا وسويسرا (كذا) والبلجيك (38) ...

وما يلفت الانتباه هو استعمال بيرم للمصطلحات الصحيحة ومن ذلك لفظ (مؤونة) الذي هو أدق من لفظ (رصيد) للتدليل على معنى (provision) وهي المال اللاّزم لتغطية الشيك عند تقديمه من طرف الحامل إلى البنك (39) وهذا ما يجعلنا نأخذ بعدا نقديا من رأي الأستاذ البشير التليلي الذي يعمّم مسألة الغموض والاقتضاب عند ترجمة المصطلحات الأجنبية من قبل مثقفي القرن التاسع عشر (40) انطلاقا من نصوص خير الدين ذلك أن بيرم يستعمل لفظ (مؤونة) بكل رشاقة ودقة .

رابعا : 1 ـ ب ـ الفوائض :

إن الفائض أو الخدمة (interet) الذي حرّمه الإسلام انطلاقا من الحديث النبوي الشريف : « ذهب بذهب ، فضّة بفضّة ... الخ .. فمن زاد أو ازداد فقد أربى ... » يجد صدى في كتابات الشيخ محمد بيرم الخامس .

يتحدث بيرم عن التجارة عند الإيطاليين ، فيقول إنه من كانت له أموال ولا يريد التعب في ترويجها والرّبح فإنه يدفع ما له لإحدى دور الصرّافين (أي البنوك) ويأخذ منها حجة في مقدار ما دفعه ... ويأخذ عن ذلك باقي كل سنة وهو لا يتجاوز ستة على المائة (أي 6٪) في السنة (41)

فما الذي يجعل شيخا مثل بيرم الخامس يعرف الفائض رغم عدم وجود نظام بنكي فضلا عن أن الإدخار الذي لا باعث عليه لدى المدخر غير الحصول على الفوائض لم يظهر في تونس إلا خلال سنة 1886 (42)

رابعا : 1 ـ ج ـ الكمبيالة :

إن الكمبيالة lettre de change وسند الأمر billet à ordre والسندات les traites بصفة عامة هي وثيقة يأذن بمقتضاها الطرف الأول طرفا ثانيا بأن يدفع للطرف الثالث مبلغا ماليا (43) وأحيانا يجتمع كل من الاذن بالدفع والمأذون به في شخص واحد ... والبنك يكون في عدة حالات هو المأذون بالدفع من رصيد الآذن به المودّع لديه .

هذه الوسيلة من وسائل الدفع التي تفتقت عليها العبقرية القانونية والاقتصادية الغربية

(الأوروبية) لم تشرع رسميا في تونس إلا خلال سنة 1903 (44) ومع ذلك نجدها في كتاب صفوة الاعتبار .

ففي حديثه عن التجارة في إيطاليا ، يقول بيرم الخامس إن التاجر يشتري شيئا أو يأخذ مالا من أحد ويعطيه حوّالة ويقبض ما يطلبه منه على أحد التجار أو البنوك على أن يقبضه على تسعين (90) يوما (45)

وما تزال الكمبيالة إلى اليوم تقبض بعد 90 يوما فالعبارة الجارية بين التجار هي (trante jours 90) أي سند يحل أجل دفعه بعد تسعين يوما من تاريخ انشائه (46)

على أنه تجدر الملاحظة أن الشيخ بيرم لئن كتب عن أشياء لم توجد رسميا في تونس مثل الشيك والكمبيالة والحساب البنكي ... فإنه سبق أن كنا بينا أن بعض الأعيان مثل أحمد باي الأوّل ومصطفي خزندار ومحمود ابن عياد قد كانت لهم معاملات بنكية موثوقة بالكمبيالات وبمختلف الآليات البنكية الأخرى انطلاقا من بنك الإخوة باستر pastre بمرسيليا (فرنسا) وعبر عدة عواصم ومدن عالمية وذلك خلال وزارة مصطفى خزندار (47) أي قبل أن ينجز بيرم الخامس رحلته إلى أوروبا فيصف تلك المحدثات بعقود قليلة من الزمن ...

إلا أنها فئة محدودة العدد ولا تمثل شيئا من الشعب التونسي فضلا عن أن ممارساتها تلك قد كانت سرية لأنها خارج دائرة الحلال .

رابعا : 2 ـ البورصة :

لئن صدر القانون المتعلق بتأسيس البورصة في تونس خلال سنة 1898 (48) ومثله القانون المبين لتنظيمها (49) فإن البدايات قد تكون سابقة عن ذلك ... فلقد أبقيت تونس بوزير فاسد هو مصطفي خزندار سابق الذكر ، الذي حتى عندما وضعت تونس تحت الوصاية المالية ـ تمهيدا للاستعمار ـ لما يسمي باللجنة المالية أو (الكوميسيون / Commission) سنة 1869 (50) فإنه ، أي مصطفى خزندار قد استثمر بما لا يقل عن ألفي رقاع من الديون التونسية على ثمن الرّقاع في البورصة (51) وهي طبعا البورصة الفرنسية .

وكنا قد بينا أن مصطفى خزندار متعود على أعمال البورصة وذلك دائما بواسطة بنك باستر Pastre إذ كان يملك هو والباي أحمد رقاعا تابعة للدولة الفرنسية ذات فوائض تتراوح بين 3 ٪ و 5 ٪ (52) .

لكن عدد المتعاطين للبورصة محدود ونخبوي وسرّي مثلما سبق بيانه بما يعني أنه لا يمكن الحديث عن سيادة ثقافة قانونية من هذا النوع في البلاد بحيث أن كتابات الشيخ بيرم في المضمار تعد تجديدا وتفتحا وتحديثا لم يعرفه فن النثر التونسي بصفة عامة ولا عرفه الفكر القانوني التونسي بصفة خاصّة .

يتحدث الشيخ بيرم الخامس عن ايطاليا فيقول ، إنه في كل مدينة محل ضخم للمناداة على المتاجر العالمية يسمى بورسي (كذا) ، ... أصوات السماسرة ينادون على أوراق ديون الدول والشركات التجارية الكبرى ذات الحصص كخليج السويس » (53) وهو قناة كما هو معروف

وليس بخليج .

فهذا الوصف للبورصة هو نفسه ما نشاهده اليوم على شاشات التلفزيون من نقل لوقائع أسواق البورصة في العالم (أمريكا ـ لندن ـ اليابان ـ باريس .. الخ ..)

وان التفاصيل التي خصّ بها الشيخ بيرم البورصة هي من الصحّة بمكان والى يومنا هذا حيث يقول عن حامل الرّقاع والأسهم « .. اذا انحطت أسعار ما اشترى لا يطالبه أحد بشيء وانما يصبر على خسران نفسه الى أن ترتفع الأسعار » (54) وان هذا الفهم لآليات البورصة بلغ حدّ ادراك مناورات المضاربين في البورصة حيث يقول : « ... بعضهم يكون ليس له رأسمال لما يشتريه ليس بحاضر بل هو مؤجل لرأس الشهر ويعتمد على أن يشتريه اليوم يرتفع سعره غدا أو بعد أسبوع ... » (55) ...

ولقد استوعب الشيخ بيرم أسرار لعبة البورصة وقواعدها اذ يقول « .. فترى الأخبار تتساقط على البورصي كالمطر وبذلك ترفع أسعار أوراق الدين أو تنحط ... (56) وهذا ما نلاحظه اليوم حول أسعار النفط في العالم مثلا بسبب أحداث عالمية اقتصادية أو حتى سياسية بلغت حدّ الاصطناع (intox) للمناورة ... ويعدّد لنا أهم البورصات التي ترد منها هذه الأخبار وهي الآستانة وباريس ولندرة وبرلين و فيينا وروما وصان بطرس بورغ (كذا) معلقا بقوله الرشيق « ... وقد اتخذ التجّار الأخبار السياسية ملعبة للأرباح ... » (57)

واذا كان الشيخ بيرم يستعمل لفظ (بورسي) في ايطاليا مثلما سبق بيانه فهو يتخذ لفظ (البورس) في فرنسا (58) أي بحسب طريق نطق أهالي البلد الذي يزوره ...

ولقد وصف لنا الشيخ محمد بيرم الخامس البورصة قمريها الى أذهاننا وهي لا تبتعد كثيرا عما هي عليه اليوم باعتبارها تحتضن المعاملات المتسلّطة على القيم المنقولة (59)

رابعا : 3 : الشركات والافلاس

رغم أن التشريع الاسلامي قد نظّم الشركات (شركة في المال وشركة في العمل) باعتبار أنها تؤدي الى اقتسام الربح (60) كما نظم القراض (commandite) (61) فانه يبدو ان التونسيين لم يتعاملوا بواسطة الشركات والقراضن كثيرا ، الى حدّ تحريض الوزير المصلح خير الدين على بعث الشركات والجمعيات والتعاضديات (62) ...

واذ يتحدث بيرم الخامس عن الشركات في كتاب صفوة الاعتبار فليس ذلك هو الملفت للنظر باعتبار تجذّر الفكرة في القانون الاسلامي وانما الجديد فيما لم يتعرض له التشريع الاسلامي من مراحل حياة الشركة وهو الافلاس (la faillite) .

فالأبيات من 1140 الى 1149 من العاصمية لا تذكر الإفلاس كنهاية الشركة على خلاف الفسخ (البيت 1141) ومع ذلك فان الشيخ بيرم يتحدث عن الافلاس ! ؟

ففي معرض الحديث عن التجارة في ايطاليا وعن الكمبيالة وعدم الخلاص في الأجل المضروب (90 يوما) فانه يلاحظ أن التاجر قد يصل الى حالة الإفلاس (63)

وواضح أن الشيخ بيرم لا يستعمل لفظي (الافلاس والفلسة) مجرّد استعمال لغوي أو أدبي ليدل على الخواء ... وانما هو يقصد آية التفليس مثلما ينظمها القانون التجاري الحالي والمعمول

به اليوم ...

فالمحاكم تصرّح بافلاس التجار والشركات عند توقفهما عن اداء الديون (64) وهو بالضبط ما عبّر عنه الشيخ بيرم ، فعندما دفع الكمبيالة الحالة بعد 90 يوما من انشائها يعطي الحق في تفليس المدين بموجب ذلك بطلب من الدائن .

خامسا : متفرقات

ان الشيخ محمد بيرم الخامس قد تناول مواضيع أخرى تمس القانون في فرعه الخاص عدا ما ذكرنا ... فعقوبة الاعدام لئن كانت في التشريع الاسلامي تنتهي الى السياسة الشرعية باعتبارها من جرائم الحدود ... فهي في القانون الوضعي من متحوّلات القانون الخاص ..

إلاّ أن الشيخ بيرم كان موقفه من تعويض عقوبة الإعدام بالسجن موقف المعارض فهو يرى في الغاء عقوبة الإعدام جلبا للشرّ (65) والموضوع خلافي الى يوم الناس هذا .

اما عن التنظيم القضائي فان الشيخ بيرم لا يرى نجاعة في نظام المحكمين (jury) الذين ينتصبون للفصل في الجنايات مثلما عاين ذلك في انقلترا وفي فرنسا (66) ... وهو الآخر موضوع خلافي لأن المحكمين ليسو من القضاة الصناعيين والمحترفين العارفين بالقانون

وهكذا فلقد استعرضنا ثقافة الشيخ محمد بيرم الخامس في الميدان الأكثر حساسية تجاه الفقه لأنه يحاكمه و يحاول افتكاك مواقعه والقانون الخاص الذي تتجدد الحاجة اليه يوميا مئات وآلاف المرّات فاتضح لنا أن هذا الباب من أبواب الحداثة قد سبق عنه غيره في التفتح على العالم المتقدم ويتضح لنا أن تختار يتونيا قد استوعب آليات هذا القانون الافرنجي المزاحم للفقه الاسلامي استيعابا شديدا وعميقا ...

الاحالات

1 ـ فتحي القاسمي : محمد بيرم الخامس ، حياته وفكره الاصلاحي ـ بيت الحكمة قرطاج ـ 1990 ـ ص 133

2 ـ انظر : مقدمة العلامة حسن حسني عبد الوهاب لكتاب رحلة التيجاني ـ الدار العربية للكتاب تونس / ليبيا ـ 1981 وذلك على سبيل المثال .

3 ـ مولاي بالحميسي : الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ 1981 ص 10

4 ـ مولاي بالحميسي : الجزائر من خلال رحلات المغاربة م س ص 11

5 ـ الطهطاوي : هو رفاعة رافع الطهطاوي (1801 ـ 1873) مصري ، درس بالأزهر وعيّن واعظا للطلبة المصريين بفرنسا أين حذق اللغة الفرنسية ومن مؤلفاته « تخليص الابريز في تلخيص باريز »

6 ـ فتحي القاسمي محمد بيرم الخامس ـ م س ـ ص 67

Jean fontaine : histoire de la littérature tunisienne par les textes téme 2- du 13 iéme siecle a l'independance édition sahar tunis 1994 p 88 -

8 ـ رابع المحمدين من آ بيرم : الجواهر السنيّة في الدولة الحفصية ـ تحقيق وتعليق الدكتور الهادي حمودة الغزي ـ المكتبة العتيقة ـ تونس ـ 1973
9 ـ جان فونتان : تاريخ الأدب التونسي من خلال النصوص من القـرن 13 الـى الاستقـلال (بالفرنسية) م س ص 89
10 ـ محمد بن الأصفر : آخر أرباع لوقف الحرمين من البلاد التونسية بمجلة " الإتحاف " اللجنة الثقافية الجهوية بسليانة عدد 69 ماي 1996 الوزير خير الدين يؤسس جمعية الأوقاف ـ ص 20]
11 ـ جان فونتان : تاريخ الأدب التونسي من خلال النصوص (بالفرنسية) م س ص 105 .
12 ـ لم تسعفني ذاكرتي وقد أعيتها المطالعة أين ظفرت بهذه المتعة إلا أني لم أنساها لطرافتها الشديدة .
13 ـ جان فونتان : تاريخ الأدب التونسي ... (بالفرنسية) م س ص 105 .
14 ـ محمد بن الأصفر : التاريخ ، القانون والحداثة (1) القانون الوضعي في دولة إسلامية ـ مثال : تونس ـ بمجلة الإتحاف ـ اللجنة الثقافية الجهوية بسليانة ـ عدد 71 ـ سبتمبر 1996 ص ص 05 ـ 23 .
15 ـ فتحي القاسمي : محمد بيرم الخامس ـ م س ـ ص 144 .
16 ـ محمد بن الأصفر : مشروع شط الجريد أو بحر الصحراء ـ دائرة المعارف التونسية ـ المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ـ بيت الحكمة (قرطاج) ـ الكراس الخامس ـ 1995 ص ص 134 ـ 165 ـ 1 ـ (مصوّرة)
17 ـ فتحي القاسمي : محمد بيرم الخامس ـ م س ـ ص 80
18 ـ آرنولد قرين : العلماء التونسيون ـ ترجمة أسماء مطلي وصفناوي عمايريه ـ المجمع التونسي بيت الحكمة ودار سحنون ـ تونس ـ 1995 ص ص 39 و 40 .
19 ـ محمد بيرم الخامس التونسي : صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ـ دار صادر ـ بيروت ـ 1303 هـ ـ الجزء 2 ـ صفحة 125 .
20 ـ محمد القاضي وعبد الله صولة : الفكر الإصلاحي عند العرب في عصر النهضة ـ دار الجنوب ـ تونس (1992) ص 39 .
21 ـ م . القاضي و ع . ا . صوله : الفكر الإصلاحي ـ م س ص 65 .
22 ـ م . القاضي و ع . ا . صوله : الفكر الإصلاحي م س ص 79
O, Houdas et F ,Martel traité de droit musulman (la tohfat ـ 23
d'ebn ACEM) gavault saint leger editeur - Alger : 1882 p 5 :
24 ـ عبد الفتاح عمر : الوجيز في القانون الدّستوري ـ مركز الدراسات والبحوث والنشر ـ كلية الحقوق والعلوم السياسية ـ تونس 1987 ـ ص 9 .
25 ـ ع . الفتاح عمر : الوجيز في القانون الدستوري ـ م س ص 9 .
26 ـ عبد العزيز بن عبد الله : معلمة الفقه المالكي ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ 1983 ـ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ص 288 .

27 ـ محمد بن الأصفر ـ تعليق على : « مشروع التعاهد العربي / نظام كنفدرالي » للدكتور محمد المجذوب ـ الوحدة العربية تجاربها وتوقعاتها ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ 1989 ـ ص ص 917 و 918 .

28 ـ الدكتور محمد مظفّر الأدهمي : أوروبا في القرن التاسع عشر : مكتبة المعارف ـ الرباط ـ 1985 ـ ص 35 .

29 ـ فتحي القاسمي : الشيخ بيرم الخامس ـ م س صص 53 و 54 و 55 و 56 و 62 .

30 ـ Jacques thomas : le droit de l'entreprise en tunisie - ENA - Tu-nis - 1971 - p 527 .

31 ـ محمد بن الأصفر : المضاربات المالية للوزير مصطفى خزندار بفرنسا وأوروبا والعالم ـ بمجلة الإتحاف ـ اللجنة الثقافية بسليانة ـ عدد 68 ـ أفريل 1996 ـ ص 13 .

32 ـ Ahmed Kassab : Histoire de la tunisie - l'époque moderne - DTD - Tunis 1976 - p 179 .

33 ـ انظر السّجل التجاري عدد : 357 بالكتابة التجارية للمحكمة الإبتدائية بتونس .

34 ـ أمر 8 جانفي 1904

35 ـ أمر 10 ديسمبر 1919 .

36 ـ جاك توماس : قانون المؤسسة بالبلاد التونسية (بالفرنسية ـ م ـ س ـ ص 585

37 ـ أمر 7 ماي 1914 .

38 ـ محمد بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ـ م ـ س ـ ج3 ـ ص 144

39 ـ جاك توماس : قانون المؤسسة (بالفرنسية) م س ص 589 .

40 ـ Bechir Tlili : elements pour une approche de la pensée socio économique de Khereddine in , étude d'histoire sociale tunisienne du 19 éme siecle université Tunis - 4 eme serie : Histoire - volume - 15 : - tunis - 1974 - p 243

41 ـ الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ـ م س ج ـ 3 ص 48 .

42 ـ أمر 16 ماي 1886

43 ـ جاك توماس : قانون المؤسسات (بالفرنسية) م س ص 559 .

44 ـ أمر 18 فيفري 1903 .

45 ـ ش ـ م ـ بيرم الخامس :صفوة الاعتبار ـ م س ـ ج 3 ـ ص 49 .

46 ـ محمد بن الأصفر : المضاربات المالية للوزير مصطفى خزندار م س ـ ص 21 (الإحالة رقم : 44)

47 ـ محمد بن الأصفر : المضاربات المالية ـ م س ـ صص : 11 ـ 21 .

48 ـ امر 4 جويلية 1898 .
49 ـ امر 19 جويلية 1898
50 ـ امر 5 جويلية 1869 .
51 ـ الدكتور أحمد عبد السلام : مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ تونس ـ 1987 . ط 2 ـ ص 56 .
52 ـ محمد بن الأصفر : المشاريات المالية للوزير مصطفى خزندار م س ـ ص 15 .
53 ـ س . م . بيرم الخامس : صفوة الاعتبار ـ م س ـ ج 3 ص 49 .
54 و 55 ـ ش م ـ بيرم ـ خ : صفوة الاعتبار ـ م س ـ ج 3 ـ ص 49 .
56 و 57 ـ ش . م . بيرم ـ خ : صفوة الاعتبار ـ م س ـ ج 3 ص 52 .
58 ـ ش م ـ بيرم خ : صفوة الاعتبار ـ م س ـ ج 3 ـ ص 87 .
59 ـ جاك توماس : قانون المؤسسات (بالفرنسية) م س ـ ص 598 .
60 ـ ابن عاصم : تحفة الحكام ـ الأبيات من عدد 1140 ـ إلى عدد 1149 .
61 ـ ابن عاصم : ن ـ م : الأبيات عدد : 1150 إلى 1161 .
62 ـ البشير التليلي : عناصر لمقاربة الفكر الإجتماعي والإقتصادي لخير الدين (بالفرنسية) م س ـ ص 24 .
63 ـ الشيخ م بيرم ـ خ : صفوة الاعتبار ـ م س ـ ج 3 ـ ص 49 .
64 ـ جاك توماس : قانون المؤسسات (بالفرنسية) م س ص 1072 .
65 ـ الشيخ م . بيرم . خ : صفوة الاعتبار ـ م س ـ ج 4 ـ ص 62 .
66 ـ الشيخ م . بيرم . خ : صفوة الاعتبار م س ـ ج 4 ص 62

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعلم أنّ اللفظ قد يوضع لمعنى مقيدا بقيد يكون ذلك القيد معتبرا في مفهومه ، حتّى لو استعمل اللفظ المذكور في المعنى المجرّد عن ذلك القيد لكان استعماله فيه بطريق المجاز [...] وما شاكل ذلك من فروق ربّما وجدت في غير لغة العرب ... فإذا استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله ، وجاز به عن موضعه . ابن كمال باشا (رسالة في مدار التجوّز في اللّفظ)

لغـــة الكتابـة التّاريخيـة في :
" إتحاف أهل الزّمان "

بقلم : الحبيب الدريدي

تكاد الدّراسات الفنيّة الأسلوبيّة تقتصر على النّصوص الأدبيّـــة دون غـــيرها استنادا إلى منطلقات نظريّة متعدّدة تعتبر أنّ النّص الأدبيّ – وهو يوضع أساسا لغاية التأثير الفنّي الجماليّ – ذو طاقة كبرى على تحمّل الدلالة باعتبار أنّ اللّغة فيه تجري إجراء خاصاً يختلف عن إجرائها العاديّ وينهض فعل الكتابة داخله على مفاهيم العدول والانزياح والإيحاء والتّعريض .

ومن هنا ظلّت النّصوص الخارجة عن باب الأدب الإنشائي كنصوص الأدب الجغرافي أو نصوص التّاريخ والرّحلة والفكر والحضارة عامّة لا تدرس إلاّ من وجهة نظر أغراضيّة thématique فينصبّ اهتمام دارسيها على معانيها ومدلولاتها وقضاياها الفكريّة ومسائلها الحضاريّة ومحاورها المعنويّة دون الاعتناء بطريقة إجراء اللّغة فيها على أنّها تعدّ هي الأخرى من علامات لغويّة ، ففيها صواتم وألفاظ وصيغ صرفيّة وتراكيب نحويّة وأحيانا صور بلاغيّة .

لذلك رأينا أن نهتمّ في عملنا بدراسة الأسلوب في نصّ غير أدبيّ . أمّا المقاصدُ الّتي نرمي إليها من خلال هذا البحث فهي :

– وصف نُظام اللّغة العربيّة في نصّ تاريخيّ حديث لتبيّن خصائص استعمالاتها وطرق استخدامها ومميّزات إجرائها في مثل هذا الجنس من الكتابة وفي تلك الحقبة من تاريخ العرب والعربيّة .

– وصف حياة العربيّة في مدوّنة مؤرّخ بعينه هو أحمد بن أبي الضّياف لتتبيّن النّصيب الّذي يمكن أن يكون للفرد في إجراء مظاهرها فندرك السّبيل إلى إثراء رصيدها العامّ من ناحية وإلى بناء الأساليب الخاصّة المميّزة انطلاقا من إمكانيات اللّغة المشتركة من ناحية أخرى .

– الاستنارة بجوامع الأسلوب وخصائص استخدام اللّغة لفهم مناهج التفكير في التّاريخ عند ابن أبي الضّياف في مرحلة أولى ولعقد صلة بين هذه المناهج وبين رؤية المؤلف للكتابة التاريخية في مرحلة ثانية . فالعمل يبدو في الظّاهر دراسة فنيّة صرفا ولكنّنا سنحاول النّفاذ من باب الأسلوب وقوانين الكتابة إلى مناهج التّفكير والقوانين العقليّة وطرائق التّعامل مع التّاريخ باعتباره فنّا من فنون الكتابة أوّلا وباعتباره علما من العلوم العقليّة ثانيا .

وكان الّذي حملنا على اختيار البحث في هذه المسألة لهذه المناسبة بالذّات أنّ مسألة الأسلوب – فضلا عن كونها لا تثار في الغالب عند مقاربة النّصوص الحضارية والتاريخية على وجه الخصوص – فإنّها لم تُثَرْ على حدّ علمنا على امتداد الدّورات السّابقة جميعها ، فقد دُرس ابن

أبي الضّياف مؤرخا ومفكّرا ومصلحا وشاعرا ومترجما ولكن لم يُنظر إليه في دراسة مفردة باعتباره صاحب قلم وصاحب أسلوب لعلّه أن يكون متفرّدا ، فخصائص الأسلوب في " الإتحاف " ظلّت خارج دائرة البحث والتحقيق .

وأقصى ما انتهينا إليه في هذا الصّدد فصلٌ قصيرٌ عقده الدكتور أحمد عبد السّلام في أطروحته « المؤرّخون التونسيون في القرون 17 و 18 و 19 » وعنْته بـ « اللّغة والأسلوب » وتحدّث فيه عن الخصائص العامّة للغة الكتابة التاريخية عند المؤرخين التونسيين وتوقّف وقفة خاصّة عند أسلوب ابن أبي الضّياف ولغته حيث اعتبر أسلوبه أكثر أساليب هؤلاء المؤرخين إغراء بالدّرس والبحث (ص 514 ـ 517) وشهادة كفاءة للبحث أعدّها الباحث خليفة الطّالبي وتحمل عنوان « الفئات الإجتماعية بتونس من خلال دراسة لغة ابن أبي الضّياف » (كلية الآداب 1979) ، وواضح من خلال عنوان البحث أنّ الدّراسة اجتماعية حضاريّة بالأساس وأنّ مسألة اللّغة لم تتخذ فيها غاية في ذاتها بل طريقا إلى غيرها .

وأمام اتّساع المدوّنة موضوع البحث وهي « إتحاف أهل الزّمان » بأجزائه الثمانية ، وحرصا على مقاربة المسألة مقاربة فنيّة دقيقة تقوم على إحصاء الظّواهر واستقصائها وحصر الأمثلة وتدقيقها اخترنا درس أسلوب ابن أبي الضّياف من خلال نصّ جزئيّ يقع في الجزء الرّابع (ص 104 ـ 126) وهو نصّ رحلة المشير أحمد باشا باي إلى فرنسا .

أمّا المراحل الّتي نهجناها في العمل فبدأت بمباشرة النّص المذكور انطلاقا من المدخل الّذي اشترطناه على أنفسنا وهو وصف نظام اللّغة ، فنظرنا في خصائص اللّفظ عند ابن أبي الضّياف باعتباره الإطار الدلاليّ الأدنى في كلّ نصّ فقادنا هذا النّظر إلى استخلاص مميّزات المعجم الّذي يستخدمه ابن أبي الضّياف ، ثم درسنا خصائص الجملة في ذاك النّص باعتبارها إطارا دلاليّا أوسع من اللفظ واهتممنا في مرحلة ثالثة بدراسة خصائص الفقر أو النّصوص الجزئية .

وهكذا سيكون عملنا موزّع إلى ثلاثة أقسام :

ـ القسم الأوّل أفردناه لخصائص اللفظ عند ابن أبي الضّياف فدرسنا الحقول الدلالية الكبرى التي تردّ إليها أغلب هذه الألفاظ ثمّ اهتممنا بالمستويات اللغوية التي يمكن أن نصنّف في إطارها ألفاظه واعتنينا أخيرا بنزعته الواضحة إلى استخدام أسماء الأعلام سواء أكانت أعلام رجال أو أعلام بلدان .

ـ القسم الثاني : خصصناه لدراسة الجملة عند ابن أبي الضّياف فانتهينا إلى استصفاء بعض خصائصها ، فالجمل عنده في الغالب فعلية قصيرة مقتضبة متتابعة ، تتابعا سريعا موصولة بأداة العطف والاستئناف ، تغلب فيها التراكيب الحالية والتراكيب الظرفية .

ـ القسم الثالث أفردناه لدراسة خصائص الفقر أو النّصوص الجزئية الصّغرى فوجدنا أنها تقوم على قاعدتين أساسيتين : قاعدة التسجيل وفيها جملة من المقوّمات كالتعريف والتصنيف والتأليف والحوار والتوثيق ، وقاعدة التخييل وفيها جملة من المقومات كالسجع وضروب الاستعارات والتشابيه وأساليب الإنشاء المختلفة والترصيع والموازنات .

1 ـ خصـــائص اللفظ :

*** الحقول الدلاليـــة :**

إذا دققنا النّظر في لفظ ابن أبي الضّياف وجدنا أنّه قابل إلى أن يردّ إلى حقلين دلاليين رئسيين هما : حقل السياسة والحكم وحقل العساكر والجند .

أمّا بالنسبة إلى الحقل الأوّل ، حقل السياسة والحكم ، فقابل بدوره إلى تصنيف داخلي ، ذلك أنّ ابن أبي الضّياف يستخدم في هذا المقام ألفاظا تشير إلى الحاكم والوظائف السياسية (وزير 48 ـ سلطان 48 ـ باي 45 ـ أعيان 23 ـ ملك 10) أو إلى المحكوم بشرا (رعيّة 6 ـ أو إلى المحكوم أرضا (مملكة ـ سلطنة ـ دولة ـ وطن ـ بلاد) (أمر 16)

وأمّا فيما يتّصل بالحقل الثّاني ، حقل العساكر والجُند ، فأغلب ألفاظ ابن أبي الضّياف فيه متّجهة إلى الرتب العسكرية (بوزباشي ـ أميرال ـ قائم مقام ـ بنباشي ـ مريشال) أو إلى اسم الجنس نفسه عسكر (32) ـ جيش ـ جند) أو إلى العتاد الحربيّ (أسطول ـ ترسخانة ـ قشلة ـ شقوف ـ فلوكة ـ صنجق) أو إلى السلاح (المدافع ـ المكاحل ـ سلاح ـ أسلحة ـ رصاص) أو إلى أصناف الجيوش (طبجيّة ـ خيّالة)

*** المستويات اللّغويّة :**

تميّز الدّراسات المعجميّة في ألفاظ اللّغة بين الفصيح القديم والفصيح الحديث كما تميّز بين ما هو معرّب وما هو دخيل وما هو عاميّ وما هو صحفيّ وما هو مبتذل ... وإذا أنعمنا النّظر في المعجم المستخدم في إتحاف أهل الزّمان لاحظنا حضور كثير من السجلاّت والمستويات اللّغوية المختلفة بل المتباينة المتباعدة أحيانا ، فابن أبي الضّياف يستخدم الفصيح القديم (الكلأ المستنبت ـ المراتع ـ الحرث(بمعنى متاع الدنيا والكسب) ـ المكلّل ـ الفرائد ـ المهْيع (بمعنى الطريق الواسع) ـ الخالص والمموّه) . كما يستعمل الفصيح الحديث وهو الغالب على لفظه .

ولكنّ الظاهرة اللافتة للانتباه أنّ نص ابن أبي الضّياف مباح لكثير من السجلات اللّغويّة التي لا تعتبر من الفصيح ولا تدخل في بابه ، فاللفظ العامي ـ فضلا عن التركيب العامي ـ يحضر حضورا واضحا في مؤلفه ، وسندرج في هذا الباب العامي بمختلف مصادره أي العامي التونسي أو التركي فهو يستعمل مثلا لفظ الفابور ليتحدث عن الباخرة والصّنجق ليسمّي الراية والشقوف مقابلا للمراكب والطبجية ليتحدّث عن الجند والعسّة ليسمّي الحراسة والكراريس للعربات والفلوكة للزورق أو القارب والطاق للطابق أو الدّور والمكاحل للبنادق والعروش للقبائل والعرضي للمعسكر والقشلة للثكنة ...

وبنفس أهميّة العامي يحضر الدخيل ، ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ ابن أبي الضياف يلجأ إلى استخدام الدخيل في سياقات مضبوطة ومقامات معلومة ، فهو يستنجد به عند ذكر الرتب العسكرية فيستعمل ألفاظا مثل الأميرال والماريشال والكولونيل أو لتسمية المراتب الإجتماعية الطبيقيّة مثل الدوق le duc أو للحديث عن ظواهر غير معروفة في البلاد العربية مثل التياترو أو الكرنتينة وهي مصطلح كان يطلق منذ القرن السابع عشر على تدبير وقائي يتمثل في عزل

المسافرين والبضائع الواردة من أقطار أجنبية مدة أربعين يوما ثم السماح بدخولهم المدينة المقصودة بعد التأكد من سلامتهم .

ومن أمثلة استعمال اللفظ المعرّب : الكولير chevalier caballéro وهو من عناوين النبل في أوروبا والترسخانة arsenal

*** أسماء الأعلام :**

من خصائص لفظ ابن أبي الضياف أنّه لفظ تسمية وتلقيب ، إذ يكثر عنده استخدام أسماء الأعلام سواء ما اتّصل بأعلام الرجال أو أعلام البلدان أو غيرها ، والظاهرة تستعصي لشيوعها على الإحصاء الدقيق لأنّه لا تكاد تقريبا تخلو جملة واحدة في النّص الذي اشتغلنا عليه من اسم علم ، فقد ذكر في هذا النص أسماء أعيان العمّال في ذلك الوقت (سعيدة بن علي بن عزوز ـ قشوم بن محمد ـ صالح بن محمد) كما ذكر قادة المحلات (أبو محمد رشيد ـ أحمد زروق ـ محمد علي أغا ـ اسكندر أغا) وذكر من الوزراء ورجال الدولة (مصطفى خزندار ومصطفى صاحب الطابع ـ محمد باي ـ محمد الصادق باي ـ محمد خير الدين كاهية ـ الوزير محمود بن محمد كاهية ـ أبو المسرة فرحات ـ محمود كاهية ..) ومن مشايخ الحاضرة وقادة الجند (أبو النجاة سليم ـ أبو اسحاق ابراهيم ـ الشيخ ابراهيم الرياحي) وأسماء أعضاء الوفد المرافق للباي إلى فرنسا (ص 109)

كما ذكر أعلاما أجانب مثل الأميرال Baudin ـ الكولير ـ Delageau الكولير ـ Desgranges الكولير ـ Jules De lesseps اليوزباشي ـ Pourcetالكولونيل Thieryالمرشال Soult كبير الوزراء وأبناء ملك فرنسا Duc de ـ Duc de joinville Guizot والوزير ـ Duc de montpensier ـ Duc d'aumale ـ nemours والمريشال Sebastiani .

وبالنّسبة إلى الأماكن والبلدان ذكر مدنا تونسية : المحمدية ـ باردو ـ حلق الوادي ـ الكاف ـ باجة ـ أو جهات (الجريد ـ الأعراض) وذكر قبائل دريد ـ ماجر ـ الفراشيش) وذكر أرباضا (باب سويقة ـ باب عليوة) ، كما ذكر مدنا فرنسية (طولون ـ مرسيليا ـ باريس) أو معالم في فرنسا : قصر Elysée Bourbon ـ بستان Saint cloud ـ قصر les invalides tuil-eries ـ وهو موضع من أصيب من العسكر في الحرب (مأوى للمصابين في الحروب) Prefet de Paris (مقرّ ولايةباريس) ـ بستان Versailles ـ Gobelines(دار الصناعات التقليدية الصوفيّة)Sévres (دار الصّناعات الخزفيّة) les champs ; Elysées ـ قصر Fontaine bleu

خاتمة القسم الأوّل :

لقد تبيّن لنا من خلال دراسة اللّفظ في « الإتحاف » أنّ له ثلاث خصائص كبرى :

أوّلها أنّه يعود إلى حقلين دلاليين رئيسيين هما : حقل السياسة والحكم وحقل العساكر والجند ، ممّا يدلّ على أنّ تاريخ ابن أبي الضّياف هو بالأساس تاريخ العائلات الحاكمة والعائلة الحسينيّة

على وجه الخصوص يطغى فيه الاهتمام بتسجيل يوميات الحياة السياسيّة مقابل خفوت الاعتناء بتاريخ الجماعات وتاريخ الأفكار أو التّاريخ الثقافي والاجتماعي .

ثانيها أنّه متعدّد المستويات اللّغوية من فصيح وعاميّ ومعرّب ودخيل ، وهذا التردّد بين هذه السجلات جميعها عنوان تردّد روّاد الإصلاح في تونس وفي غيرها من البلاد العربيّة في الإجابة عن سؤال النّهضة بين النّماذج الحضاريّة المختلفة التّي تمثّلها هذه المستويات اللّغوية وهي نماذج يمكن ردّها إلى أصلين مركزيين : النّموذج الغربي والنّموذج التراثيّ . كما يقوم هذا التردّد شاهدا على حال العربيّة في النّصف الثاني من القرن 19 حيث لم تكن قد أهّلت بعد لاستيعاب مفاهيم ومصطلحات هي من استحداث حضارة الغرب .

ثالثها أنّ قسما هامّا من هذا اللّفظ لا يعدو أن يكون سوى أسماء لأعلام الرّجال أو أعلام البلدان ، وهذه خاصيّة دالّة على أنّ ابن أبي الضّياف في كتابته التّاريخيّة منشغل أساسا بالتّسجيل والتّقييد ، مهتمّ أوّلا بالتّوثيق والتّدوين والتّخليد .

2 ـ خصائص الجمـــلة :

* الفعليّة والقصر والتّتابع :

إنّ الباحث في مدوّنة ابن أبي الضّياف لا يجد عناء في الاهتداء إلى أنّ الجملة الطّاغية عنده هي الجملة الفعليّة ، وخير خفيّ أنّ الجملة الفعليّة بخلاف الاسميّة ـ وهي جملة ثبات وسكون تستخدم عادة للوصف والتّصوير ـ هي جملة حركة وحدث تستعمل عادة لسرد الوقائع ونقل الحوادث ، فاهتمام المؤلّف منصبّ في جميع مواطن كتابه ـ وخاصّة في نصّنا ـ على ملاحقة الأحداث وتقصّيها ونقلها .

ثمّ إنّ الجملة الفعليّة عنده هي في الغالب الأعمّ شديدة القصر والاقتضاب تكاد تنحصر في المكوّنات الرئيسيّة للجملة الفعلية من نواة إسناديّة ومفعول واحد ، وهذه الصّفة ذات علاقة وطيدة بنزعة المؤلّف الواضحة إلى عرض الأحداث المتتالية المتتابعة والاحتفاء حتّى بما كان منها جزئيّا تفصيليّا .

وإنّ هاتين السّمتين المميّزتين لجملة ابن أبي الضّياف وهما الفعليّة والقصر أو الاقتضاب ترتّبت عنهما سمة ثالثة وهي أنّ الرّبط بين الجمل عنده يتمّ فقط بواسطة أداة العطف « الواو » ممّا يقوّي ظاهرة التتابع السّريع للأحداث والوقائع الّتي ينقلها .

ولعلّ الظّاهرة الطّريفة حقّا في جمل ابن أبي الضّياف أنّها على قصرها وسرعة تتاليها تخضع في أحايين كثيرة إلى ضرب من التّنظيم صارم دقيق ، فهذه الجمل القصار المتتابعة سراعا تفتتح عادة بجملة ظرفيّة مؤطّرة وظيفتها مفعول فيه للزّمان وتكون بمثابة المطلع الّذي تعقبه تلك الجمل القصيرة كالأسماط في الموشّح أو كالأسطر الشعريّة في القصيدة الحديثة ، ومن أمثلة ذلك قوله يصف زيارة الباي إلى المريشال Soult كبير الوزراء : (ولمّا وصل دار المريشال Soult) تعرّض له وعظم قدومه وفرح لتلقّيه وأطال معه المحادثة .

[ولمّا خرج] شايعه وطلب منه الباي الرّجوع فاستعظم ذلك وقال : « كيف أخلّ بواجب ؟ » وماشاه إلى الكرّوسة (ص 114)

أو قوله يصف رجوع الباي إلى الحاضرة :
[ومن الغد] توجّه للحاضرة وزار مقام الشاذلي ومنه توجّه إلى باردو وأطلقت مدافع السّرور ... ودخل المحكمة من بابها وجلس على كرسيّه فسلّم عليه رجال الدّولة والأعيان من العسكر وغيرهم ثمّ دخل صرايته فأتاه أهل المجلس الشرعي فقام لتلقيهم على العادة وسلّم عليهم سلام المشتاق وعظّم مقدمهم وجلس معهم .

* **الحـــال :**

ومن التراكيب الجزئية المتواترة في جملة ابن أبي الضياف التّركيب الحاليّ ، وهو يستعمل عنده بأشكاله وصوره المختلفة فيكون لفظا مفردا وتركيبا جزئيًا وتركيبا إسناديًا اسميا أو فعليًا ، فمن أمثلة الحال لفظا مفردا قوله : كاتب الوزير Guizot متشكيًا ـ قام الباي منفّصا ـ أتى زائرا ـ يقف فيه خطيبا ، ومن أمثلته تركيبا جزئيا قوله : وقف معتبرا بحال الدنيا ـ لا يترك نسيا منسيا ـ وسار على غير طريق قدومه ـ تقدّم إليه بخطوات باسم الوجه . ومن أمثلته تركيبا إسناديا قوله : ومرّت الفلوكة على الشقوف وهو يسلّم على كلّ شقف بانفراده أتاه المريشال يدبّ على ضعف بدنه كما تستعمل الحال عند ابن أبي الضّياف في معان مختلفة فتفيد أحيانا كيفيّة وقوع الفعل (خرجوا متفرّقين) أو بيان حالة ظاهرة (وجد العسكر واقفا) أو بيان حالة نفسية (فأحبّ أن يقف معتبرا) أو سبب وقوع الفعل (وأتته أعيان البلد وغيرها مودّعين) وكثافة استعمال الحال عند ابن أبي الضّياف (أحصينا اثنين وأربعين مثالا في النّص المذكور) يمكن أن نتّخذها قرينة إضافيّة على قيام الكتابة التاريخية عنده على حكاية الأحوال وتصوير الأفعال دون استخلاص النتائج واستجلاء المواقف واستنباط الأفكار .

ARCHIVE

3 ـ **التّراكيب الظرفيّة :**

ومما لا ينبغي أن يغفله دارس الأسلوب في " الإتحاف " الكثرة الواضحة للتّراكيب الظرفيّة في جُمله وخاصّة منها ظروف الزّمان ، وإذا عدنا إلى النصّ المذكور (رحلة أحمد باي إلى فرنسا) واستخرجنا جميع الأمثلة ثمّ بادرنا إلى تصنيفها وتبويبها اتّضح لدينا أنّ قسما كبيرا منها يندرج في إطار تركيب نموذجيّ يفتتح " بلمّا " الحينيّة أو الظرفيّة ، ومن أمثلة ذلك قوله :

ـ ولمّا خرج هؤلاء الأمراء أشاع أنّه يريد السّفر

ـ ولمّا خرجوا تنفّس الصّعداء

ـ ولمّا سلّما عليه وقع في نفسه

ـ ولمّا تمّت مدّة الكرنتينة أتى الأميرال (25 مثالا)

وقد عرّف ابن هشام في مُغني اللّبيب (ج 1 ص 280) لمّا الحينيّة بأنّها : « تختصّ بالماضي فتقتضي جملتين وجدت ثانيتها عند وجود أولاهما ويقال فيها حرف وجود لوجود ويعضهم يقول : حرف وجوب لوجوب » .

وواضح من خلال تعريف ابن هشام ومن خلال الأمثلة التّي يوفّرها كتاب " الإتحاف " أنّ الجملة التّي تفتتح بلمّا الحينيّة تتضمّن ضرورة حدثين اثنين ، فالجملة واحدة والأحداث متعدّدة ممّا يقيم الدّليل على طغيان الحدث على الكلام ومن ثمّة طغيان التّسجيل على التّحليل والتّعليل .

ومن الاستعمالات المتواترة في هذا الباب التّركيب الظرفيّ (ومن الغد) ، وهو استعمال قريب ممّا يعهد في أساليب الحكاية والقصّ ، فابن أبي الضّياف يروي ويقصّ حوادث أكثر ممّا يحلّل ويتدبّر ، إنّه يقف من الأحداث موقف الرّاوي القاصّ النّاقل لا موقف القارئ المحللّ السّابر .

خاتمة القسم الثاني :

يتّضح من خلال دراسة خصائص الجملة عند ابن أبي الضّياف أنّ جُمَلَهُ فعليّة قصيرة مقتضبة تتتابع تتابعا سريعا بواسطة أداة العطف « الواو » وهي جمل تكثر فيها التّراكيب الحاليّة والظّرفية ، وجميع هذه المميّزات تجعل لغته لغة تسجيل للحوادث وتقييد للأخبار والوقائع .

3 ـ خصائص النّص :

سنهتمّ في هذه المرحلة بدراسة خصائص وحدة لغويّة أكبر من الجملة سمّيناها النّص ، ونهدف من خلال ذلك إلى محاولة فهم طرائق بناء هذه الوحدة اللّغوية والإلمام بمقوّمات نسيجها التّركيبيّ والبلاغيّ والفنيّ عامّة . وإنّ الخصائص البنيويّة في نصّ ابن أبي الضّياف تشير إلى أنّ هذا النّص يقوم أوّلا على قاعدة التسجيل وأبرز مظاهرها التّصنيف والتّعريف والتّأليف والحوار والتوثيق .

1 ـ التّصنيف :

أمّا التّصنيف فهو بالأساس تصنيف حوادث لا تصنيف أفكار وهو تعداد لا تنظيم وتبويب لأنّه لا يخضع إلاّ لمقياس التّرتيب الزمنيّ ، وهذا التّعداد دال على كثرة الحوادث التّي يتوقّف عندها ابن أبي الضّياف ، فهو منشغل بالحدث لا بعلله وأسبابه أو بدلالاته ، وللتّصنيف عنده بنية دقيقة طريفة ، فنصّ التّصنيف يبدأ بجملة مدبّجة ويختتم بجملة متوّجة وبين الجملتين تعرض الحوادث المرتّبة ترتيبا منيّا ، وأهمّ الأمثلة على هذه الظّاهرة حديث ابن أبي الضّياف عن زيارات أحمد باي إلى جملة من المواضع في مدينة باريس :

[الجملة المدبّجة]

« والحاصل أنّه في مدّة إقامته بباريس يركب كلّ يوم بأتباعه إلى الأماكن التي تتوق النّفوس لمعرفتها من عجائب باريس والأميرلاي المأمور بعسسّته يدور معه » ص 118

[الأماكن التي زارها]

- فتوجّه إلى موضع مهمّات الطبجيّة
- وتوجّه إلى دار Prefet de Parie (دار الوالي)
- وتوجّه إلى بستان versailles
- وتوجّه إلى دار ضرب السكّة
- وتوجّه إلى دار ندوتهم (البرلمان)
- وتوجّه لمحلّ يسمّى Gobelines(النّسيـــج)
- وتوجّه إلى محلّ يعرف بـ Sévres (الخزف)
- وتوجّه إلـــى دار الكتـــب

ـ وتوجّه إلى قصر السلطنة المعروف بـ Tuileries

ـ وتوجّه إلى دار التعليم الكيميائي

[الجملة المتوّجة]

« ولم يزل يتردّد في الأماكن المشهورة كبيت تاج الملك المكلّل بثمين الأحجار وما تبعه من عجيب المصاغ بفرائد الياقوت وغيرها ممّا يُبهر النّظر » ص 121 .

*** التّعريف :**

تتبني أغلب الفقر في النصّ الذي اخترناه أنموذجا على مبدإ التّعريف ، إذ تفتتح الفقرة بذكر مكان أو بناية أو موضع أو شخصية ويتبع المؤلّف تسمية المكانِ بالضّمير العائد عليه (وهو) ثمّ يأتي بالتّعريف ومن الأمثلة على ذلك قوله :

ـ وكان بمحلّ يسمّى Les invalides وهو موضع من أصيب من العسكر في الحرب بنقص عضو أو نحوه .

ـ وتوجّه إلى دار Prefet de Paris أي شيخها ويعبّر عنها بدار الجنس وبدار الملّة وهي من أعاجيب الدنيا .

ـ وتوجّه إلى دار ندوتهم وهي بيتُ وكلاء المملكة ولك أن تقول : بيت عمران المملكة وثروتها ونجاحها وهي من المباني الضخمة المحترمة .

والتّعريف وجه من وجوه التّفصيل والتّدقيق لمحلّ أو موضع أو بناية أو مؤسسة أو شخصيّة ، وقد اتّصل غالبا بمعالم ماديّة لا بمفاهيم نظريّة أو قوانين مستنتجة أو قيم مستحدثة ، وهذا دليل على غلبة الكشف والنّقل على التعمّق والبحث .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

*** التّأليـــف :**

يفتتح كثير من فقر ابن أبي الضّياف بعبارة : « وبالجملة » أو « والحاصل أنّ » ، وتأتي هذه الفقر لتتوّج مرحلة تسجيلية أو وصفيّة فتجمل ما فصّله المؤلّف وتلخّص ما كان قد توسّع بشأنه ، ومن أمثلتها قوله : « وبالجملة فقد صدر من أهل فرنسا وسلطانها ورجال دولته مع هذا الباي ما بقي أثره ولا ينسى خبره من حسن القبول وإظهار المسرّة والاعتناء »

والملاحظ أنّ المؤلّف حتّى في حال التّأليف والإجمال لا ينزع إلى استخلاص النتائج النظريّة أو استصفاء القوانين الفكريّة وإنّما هو يجمل حوادث ويؤلّف بين وقائع .

*** الحـــوار :**

لعلّ أطرف ما يميّز كتابة التّاريخ عند ابن أبي الضّياف استخدامه أسلوب الحوار الّذي يقرب أحيانا من الحوار المسرحيّ ، فهو لا يعرض الأحداث ويسجّل الوقائع فحسب وإنّما يتوقّف أحيانا ليصوّر المشاهد وينقل ما دار بين شخصياته التّاريخية من حوار ، فهو يصوّر مثلا الحوار بين الباي والأميرال (ص 110) أو الحوار بين الباي والمؤلف بعد مشاهدة مسرحيّة (ص 116) أو الحوار بين الباي ورجل من أعيان باريس (ص 121) وكذلك حوار الباي والمؤلّف عند حنين الباي إلى تونس (ص 122) .

* **التّوثيـــق :**

لا تخلو كتابة التّاريخ عند ابن أبي الضّياف من توثيق وخاصّة ما اتّصل بمكاتبات الباي وخطبه ورسائله ، وقد أورد عددا كبيرا منها في نصّ رحلة أحمد باي إلى فرنسا ، مثل نصّ مكاتبة الباي لسائر مدن المملكة وعروشها قبل سفره (ص 105) ومكاتبته لابن عمّه ووليّ عهده الّذي أنابه عنه (ص 105) ونصّ الكلمة الّتي قرأها المؤلّف أمام كبراء العسكر (ص 106) ورسالة الباي إلى وزير بريطانيا (ص 122) .

* **التّخييـــل :**

في مقابل جميع مظاهر التّسجيل تلك نجد في أسلوب ابن أبي الضّياف أصداء من طرائق العرب القدامى في الكتابة من سجع وتشابية واستعارات وترصيع وموازنات وتضمين .

خـــاتمة عامّـــة :

لا يُذكر المؤرّخون التونسيون في ق 19 إلاّ ذكر ابن أبي الضّياف و " إتحافه " وتحريره لعهد الأمان ورحلته إلى فرنسا ، فهو أوسع مؤرّخي القرن الماضي شهرة وأذيعهم صيتا وأبعدهم صدى .

غير أنّ الدّراسات الّتي اتّصلت بالرّجل وكتابه ظلت في الغالب متّصلة بقضايا الحضارة والفكر ولم تعالج الأسلوب عنده معالجة فنيّة دقيقة ، وقد حاولنا الإسهام في كشف النّقاب عن بعض خصائص كتابة التاريخ في « الإتحاف » فانتهينا إلى أنّ نصّ ابن أبي الضّياف ينهض أساسا على معجم السياسة والحكم والعسكر والجند وأنّه معجم تحضر فيه مستويات لغويّة مختلفة من فصيح وعاميّ ومعرّب ودخيل ، كما أفضى بنا البحث إلى ملاحظة تركيزه على ذكر الأعلام سواء أكانوا من الرجال أو من البلدان .

وانتهينا من جهة ثانية إلى ملاحظة أنّ نصّ ابن أبي الضّياف يقوم تركيبيًا على جمل فعليّة قصيرة متتابعة تكثر فيها التراكيب الحاليّة والظّرفيّة . ويبنى على أساس التّعريف بالمواضع والأشخاص وتصنيف الحوادث وإجمال الوقائع ، كما تتخلّله مشاهد حواريّة ووثائق كتابيّة وهو لا يخلو فضلا عن ذلك كلّه من استعمالات بلاغيّة ومحسّنات بديعيّة .

فالمؤلّف يكتب التاريخ بلغة السّرد والقصّ حينا وبلغة المسرح حينا آخر وبلغة العلوم طورا وبلغة الأدب الإنشائي طورا آخر ، ولعلّ هذا أطرف ما في أسلوبه ، إنّه يكتب التّاريخ بلغة أجناس كتابيّة مختلفة يصهرها جميعا لينشىء أسلوبا هو به متفرّد ولكنّ لغته هي لغة كتابة للتّاريخ لا لغة قراءة للتّاريخ .

إنّ أسلوب ابن أبي الضّياف صدى لما كان يعترض النّخبة في القرن 19 من صعوبات منهجيّة وما كان يعتريها من حيرة فكريّة وتردّد بفعل ذاك اللّقاء الهائل الّذي حدث بين الحضارة الغربيّة النامضة والحضارة العربيّة الإسلاميّة الخارجة من عصور الانحطاط والظلام .

إشكالية التراث

بقلم : حسن غزّيل

كيف السّبيل إلى تحقيق النّضة الشاملة ؟ لم تأخّر العرب وتقدّم الغرب ؟ كيف نواجه التحدّي ونواكب العصر ؟ هل يكون ذلك بإهالة التّراب على التراث ورميه عرض الحائط وتولية وجوهنا نحو المستقبل بدعوى أنّنا نعيش مع الأحياء لامع الأموات ؟ أم بالإنقطاع إلى التراث أم بالمواءمة بينه وبين مقتضيات الحداثة ؟ هل يستدعي سؤال الحداثة الانسلاخ عن الموروث الحضاري أم أنّه يستوجب ضرورة محاورة عميقة بينه وبين التّراث ؟ .

تلك هي إشكاليات محوريّة واجهت رجال الإصلاح منذ أوائل القرن التاسع عشر ، فجرى الإختلاف بين المفكّرين العرب المسلمين حول كيفية التعامل مع التراث بمنهجية حديثة ورؤية معاصرة تخالف القراءات العاطفية والأساليب التعسفية ، ثمّ كيف ننجز قراءة عربية للفكر العالمي المعاصر : « تجعل منه موضوعا لذات تريد أن تحتويه بدل أن يحتويها : قراءة نقدية متجدّدة ومتواصلة تبرز نسبيته وحدود العموم والخصوص فيه » (1) . إنّه سؤال العصر موجّه إلى ثنائية التراث والحداثة / التراث والمعاصرة / التراث والتجديد ... يرنو إلى صوغ مشروع يحقّق التقدّم المنشود في شتّى المجالات .

لملامسة هذا الموضوع يقتضي البحث منّا : تحديد ماهية التراث في الفكر العربي القديم ، وفي الفكر العربي الحديث ثمّ الوقوف عند أهمّ خاصياته في مرحلة أولى ، إضافة إلى ابراز المواقف منه وكيفية التعامل معه وعلاقته بمشكلات العصر في مرحلة ثانية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1 ـ ماهية التراث

أ ـ التراث في الفكر العربي القديم

كلمة التراث منحدرة من الفعل : [و ـ ر ـ ث] وهو ما يخلّفه الرجل لورثته ، وفي الجاهلية يطلق على الأشياء المادية التي يتنازعها الأفراد من مخلّفات نوي قرباهم ... « وأصل التراث ورث او وراث ، فابدلت الواو تاء ، فالتراث والإرث والورث مترادفة وهي مصادر تدلّ عندما تطلق إسما على ما يرثه الانسان من والديه من مال أو حسب » . (2) وقد « فرّق بعض اللغويين القدامى بين الورث والميراث على أنهما خاصّان بالمال وبين الإرث على أساس أنّه خاصّ بالحسب ، ولعلّ لفظ التراث هو أقلّ هذه المصادر استعمالا وتداولا عند العرب الذين جمعت منهم اللغة » (3) وجاءت كلمة التراث مرّة واحدة في القرآن بمعنى الميراث في قوله تهالى « وتأكلون التراث أكلا لّما وتحبّون المال حبًا جمًا » (4) أي تأكلون الميراث أكلا شديدا لا تسألون أمن حلال هو أم من حرام . ونفس المعنى نجده في الحديث [ولك ربي تراثي] ، كما عنت في موضع آخر : الميراث الديني والثقافي كما في قوله تعالى في دعاء زكريا عليه السلام : « يرثني ويرث من آل

يعقوب » (5) : « ميراث النبوّة والعلم والفضيلة دون المال » (6) .

إذن إنّ المعنى الذي تحيل اليه مادة ورث في الخطاب العربي القديم هو المال بدرجة أولى والحسب بدرجة ثانية ، « أمّا شؤون الفكر والثقافة فقد كانت غائبة تماما عن المجال التداولي لكلمة التراث ومرادفاتها » (7) ، خذ لك مثالا : عندما يتحدّث الكندي في مقدمة رسالته إلى المعتصم بالله (في الفلسفة الأولى) عن فضل القدماء وواجب الشكر لهم وضرورة الأخذ عنهم في مجال العلم والفلسفة لا يستعمل العبارة الشائعة اليوم « عبارة الأقدمين » بل تستعمل تعابير أخرى مثل : ما أفادونا من ثمار تفكيرهم » (8)

ب- التراث في اللغات الأجنبيّة

إذ تتبّعنا كلمة التراث في اللّغتين الأنقليزية والفرنسية Heritage, Patrimoine, Legacy: ، فإنها نجدها لا تتماهى ومصطلح التراث في الفكر العربي الحديث والمعاصر « لأنّ هذا المصطلح لا يميّز بين الدّين وبقية الإرث الحضاري بل هو يتعامل مع التراث على السّواء بين ما مصدره الإنسان المخلوق وما مصدره الاله الخالق ، فالكلّ يتعرّض لعملية النقد والانتقاء والقبول والرّفض » (9) كما أنّ التراث في اللغات الأجنبية لا يكاد معناه يتجاوز المعنى الكلاسيكي أعني تركة الهالك إلى أبنائه والعادات والتقاليد التي يرثها الخلف عن السلّف ..

ج- التراث في الفكر العربي المعاصر

يعني التراث في الفكر العربي الحديث والمعاصر كلّ ما خلّفته لنا الأجيال السابقة عن مختلف الميادين : الدينيّة والأدبية والعلمية والفنيّة والفكرية وآثار ذلك في أخلاق أمّة وسلوكها وعقلياتها ، بمعنى آخر كلّ ما يرثه الخلف عن السلّف من تراث ماديّ وصوري ونفسي ... وينمو بالتلقين (بالتعليم) وبالقدرة (بالتقليد) وبالتمرين ، وقد عرّفه سعد غراب (10) بكونه يشمل كلّ ما خلّفته لنا الأجيال السّابقة في مختلف الميادين الدينية والفكرية والأدبية والتاريخية والأثريّة ... وآثار ذلك في أخلاق أمّة ما وعقلياتها وأنماط عيشها وسلوكها ، وقريب من هذا التعريف يرى حسن حنفي (11) « أنّ التراث مجموعة التفاسير التي يعطيها كلّ جيل بناء على متطلباته وهو ليس من العقائد النظرية الثابتة بل مجموعة تحققات هذه النظريات في ظرف معيّن وفي موقف تاريخي محدّد وعن جماعة خاصّة تضع رؤيتها وتكوّن تصوّرها للعالم » .

2 . خصائص التراث

يتسّع التراث لجملة من الخصائص :

* الشمول :

التراث لا يقتصر على جانب دون آخر من جوانب الحياة الإنسانية بل هو وعاء شتّى المجالات فهو جماع ما تركه السلّف للخلف من مختلف الفنون والآثار والنّواحي الفكرية والأدبية والعلمية والاجتماعية والكلامية ... إذ هو ما انشئ على هذه الأرض من معالم وما أقيم على ظهرها من آثار وما حفظ في بطنها من خبايا وخيرات وما ابتدعه عقل الأمّة من معالم وما صنعته من تآليف وما سجّله من رسوم وما حفظه من مناهج كما يرى ذلك الباحث محمد السويسي ، فالتراث إذن

لون تلوّنت به الحياة في بلد ما وما اصطبغ به محيط العيش من ناحية المنظار الطبيعي ومن حيث السلوك الإنساني .

*** الإنسانية :**

التراث مدرك إنساني وتراث أيّ أمّة من الأمم ليس منبتّا عن التراث العام بل هو حصيلة تأثر بأمم مختلفة أسهمت في تشكيله ، إذ هو لا يمثّل عصرا بذاته ولا مجتمعا بذاته ، إنّه نتاج تراكم كمّي لأمّة من الأمم عبر الزّمن ، هكذا يبدو أنّ وصف هذا التراث بكونه تراثا دينيّا أو ذاك بأنّه هندي محض فيه نوع من التسامح في اطلاق الصفة على الموصوف لأنه لا يمكن أن نفصل تراث أمّة ما عن مجموع التراث الإنساني (12) . إذن التراث مدرك إنساني تشارك فيه شعوب مختلفة وكلّ تراث في الحقيقة من حلقات التراث العامّ وجزء منه ، ولعلّ في تعريف محمد عابد الجابري للتراث ما يشير إلى هذا المعنى ، « فالتراث هو كلّ ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي سواء كان ماضينا أم ماضي غيرنا سواء القريب منه أم البعيد ... » (13) ، فهذا التعريف يشمل التراث المعنوي من فكر وسلوك ... والتراث المادّي كالآثار وغيرها ويشمل القومي ما هو حاضر فينا والتراث الإنساني ما هو حاضر فينا من ماضي غيرنا ...

***الحيويّـــــة:**

من خصائص التراث التعايش مع الحاضر والتزثير فيه ، ولذا لا يمكن بأي حال من الأحوال إغفال التراث لأنّه حاضر ماثل في كلّ حدث ننجزه ، « فسواء شئنا أم أبينا ، فنحن نعيش تراثنا ونعانقه ونتعامل معه في كلّ ساعات يومنا ، في طرائق تفكيرنا وحديثنا ، في التناقضات الكثيرة المتّصلة التّي نحياها » (14) هذا الحضور مُحسّم في سلوكنا اليومي ، في الأبنية النفسية التّي ورثناها والتي ما زالت تعدّد أفعالنا (15) ، وقد شبّه الفيلسوف الفرنسي كلود لفي ستروس التراث بأنّه أشبه ما يكون بالضيف الّذي يحلّ بيننا دون أن يكون أحد قد دعاه إلى الحضور وأنّ التراث بالنسبة إلى المثقّفين العرب هو هذا السّاكن الّذي لا تنوي مفارقة المسكن أبداً ، و « هو جزء من المخزون النفسي للمعاصرين وأحد مكوّنات الواقع كالعادات والتقاليد والأمثلة الشعبية ، وهذه لا تلغي أو تسقط من الحساب بل تستخدم ويعاد صياغتها » (16) .

لجميع ما تقدّم نقول إنّ التراث شهادة ميلاد أمّه من الأمم ووثيقة إنتهائها التّي تحمل مختلف منجزاتها وتستوعب سائر قيمها ومثلها التّي تميّزها عن سائر الأمم ، « فالعلاقة بين الأمّة وتراثها علاقة كينونة ووجود واستمرارية واجتماعية وتحرّر من أنماط ثقافية مهيمنة والأمّة التّي لا تستوعب ولا تبوّئ تراثها هذه المكانة فقد حكمت على نفسها بالغربة والإنبتاتْ » (17)

3 ـ كيفية التعامل مع التراث :

حتّى يؤدّي فعاليته ، وحتّى يكون حجر الزّاوية في تشكيل الحاضر وصياغة المستقبل ، لابدّ من :

*** التعامل العقلي معه :**

وهذا لا يحصل إلا بمجانبة النظرة الوثوقية وبالارتفاع عن القراءة العاطفية المشحونة بنوع من الإعجاب من ناحية ، وبكسر قيود التقليد وبقطع خيوط التّبعية من ناحية أخرى ، وهذا أمر متأكّد

بممارسة النقد المتواصل « والنقد لا يعني الرفض الميكانيكي بل أساسا تفكيكا للسلطة التّي يمارسها الخطاب على المخاطب » (18) ، بمعنى آخر ألاّ نعتبر التراث شيئا منتميا وفوق النقد « فإن ذلك لن يزيد الثّقافة التّي تعتبره على هذا النحو إلاّ تهميشا فتصبح هي بدورها ثقافة منتهية مآلها الإندثار » (19) وعليه لا يجب أن تكون قراءتنا للتراث من قبيل المباهاة والتفاخر والمنّ على الثقافة الإنسانية بل للكشف عن مكامن القوّة ومصادر الخصوبة والإفادة منها الآن ومستقبلا .

*** اعتبار التراث طريقة تفكير :**

لأنّ التراث ظاهرة ثقافية موقوتة بإطار مكانيّ تشكّلت نتيجة عوامل عديدة فهو « لا تقدّم حلوللا جاهزة تجيب على كلّ الأسئلة المتعلّقة بجميع أوجه حياتنا المعاصرة » (20) ولعلّ هذا عين ما أشار إليه برهان غليون بقوله : « ينبغي أن ندرك وأن نقبل فكرة أنّ التراث لا يتضمّن حلولا جاهزة لا كليّة ولا جزئية للعصر ، فالحلول تصوغها الجماعات في كلّ حقبة من التفكير في المشاكل التّي تواجهها » (21) .

*** إحتواء التراث :**

على قارئ التراث أن يحتوي التراث بدل أن يحتويه حتّى لا يكون سلطة مرجعيّة قاهرة فاعلة تحتوي الذّات إحتواءا يفقد شخصيتها واستقلاليتها (22) لأنّ ذلك يحول دون التعامل الموضوعيّ مع مكوّنات التراث وقريب من هذا يذهب محمد عابد الجابري إلى القول بأنّ النّهضة المنشودة تبقى حلما « ما دمنا محكومين بسلطة النّموذج سواءا كان التراث أو الفكر المعاصر .. نعم الإنسان بطبيعته يفكّر من خلال نموذج ولكن فرق بين نموذج يأخذك للاستئناس به وبين نموذج يأخذك أصلا يقاس عليه » (23)

*** الوعي بالتراث :**

يجب الوعي بمكوّنات التراث وبالرؤى التّي شكّلته وبالظروف التّي حايثته : هذا الوعي قائم على تأويل التراث وإعادة تركيبه وتفكيكه لنجعل منه كتيبة من كتائب الحرب ضدّ التخلّف والجمود وتيّارا ساريا في تغيير الأمّة لأنّ الإخلاص الحقيقيّ للسّلف هو المحافظة على تراثهم الحضاري لا باعتباره رمادا ميّتا ولكن باعتباره لهبا حيّا (24)

*** القطع مع الفهم التراثي للتراث :**

الفهم التراثي للتراث هو الفهم القائم على الأخذ بأقوال الأقدمين (الأسلاف) كما هي فيعمد إلى الاستنساخ والانخراط في إشكاليات المقروء والاستسلام لها وتغييب الرّوح النقديّة والنظرة التاريخية تلك النظرة التّي تحدث قطيعة مع التراث « القطيعة التّي تجعلنا كائنات تراثيّة ، القطيعة التّي ندعو إليها ليست القطيعة مع التراث بل القطيعة مع نوع من العلاقة مع التراث ، القطيعة التّي تحوّلنا من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث أي إلى شخصيات يشكّل التراث أحد مقوّماتها » (25)

*** الالتزام بالموضوعية :**

إنّ فصل الذّات من التراث وفعل المقروء عن القارئ أمر ضروريّ في قراءة التراث حتّى نتمكّن من فهم القوانين المشكّلة للتراث والرؤى وسمات الأوضاع التّي ساهمت في صياغته ، ولعمري إنّها

عمليّة محقّقة « بإخضاع النّص التراثي لعملية تشريعية بقيقة وعميقة تحوّله بالفعل إلى موضوع للذات ، إلى مادة للقراءة » (26) لكن تبقى هذه المنهجية صعبة لأنّ الإنسان مؤطر بتراثه والفرق بيّن « بين من يفكّر بتراث ممتدّ إلى الحاضر ويشكّل الحاضر جزءا منه وبين من يفكّر بتراث توقف عن النموّ » (27) .

لجميع ما تقدّم نقول إنّ تعاملنا مع التّراث يكون بأمرين : بقراءته قراءة معقولة وموضوعيّة من جانب ، وبحسن توظيفه من جانب آخر ، وبذلك تتحقّق الاستعادة الواعية له « بفهمه من جانب أوّل وتوظيفه من جانب ثان : فهمه فهما يقوم على الكشف عن مكوناته النظرية وآلياته المعرفية وبالتالي يكون الفهم كيف يدور التراث » « وبموجب أي منطق يجد فعاليته ، أمّا توظيفه فهو يعني استخلاص ماكان منه معقولا وتسخيره لضرب ماهو سي ء وسلبي في حياتنا وفكرنا » (28)

3 ـ التراث والقضايا المعاصرة

لم الإهتمام بالتّراث ؟ ألا يعدّ ذلك عصابا فكريا « أصاب العرب المفكّرين منذ مطلع القرن 19 وخاصة بعد إكتشافهم عقدة تفوّق الآخر علميًا وتكنولوجيا واقتصاديا ... فراحوا يشخّصون أسباب رجوعهم القهقرى ويبحثون عن الأنواء المناسبة لمنافسة الغرب ومقاسمته السيادة وشغل حيّز العصر ؟ فهل يتمثّل التراث بحقّ قضايا العصر ؟ وهل يسهم في تشكيل الحاضر وتشخيص المستقبل ؟ .

إنّ التراث بمنظومته القيمية الشاملة ومثله قادر على تشكيل ملامح المجتمع المتعايش وعلى تعميق حسّ الإنتماء ونجاوز مظاهرالتمايز « وعلى التفاعل مع قضايا العصر لا من خلال إعادة بناء أحداث الماضي في الحاضر ولكن من خلال تطوير تحقّقات وتطبيقات السّلف والإستفادة من تجاربهم في ظلّ معطيات اللحظة التاريخية الراهنة » (29) . وتتأكد أهمية التراث يوما بعد يوم بقدر ما يعطي من نظريات علمية في تفسير الواقع والعمل على تطويره فهو ليس « متحفا للأفكار نفتخر به وننظر اليه بإعجاب وندعو العالم معنا للمشاهدة والسياحة الفكرية بل هو نظرية للعمل وموّجه للسلوك ونخيرة قومية يمكن إكتشافها واستثمارها من أجل إعادة بناء الإنسان » (30) ، فهو بهذا جدير بالدراسة والتقييم دراسة هادفة من أجل أن نعيده إلينا في صورة جديدة وعلاقات جديدة : « من أجل أن نجعله معاصرا لنا على صعيد الفهم والمعقولية وأيضا على صعيد التوظيف الفكري » (31) .

خلاصة القول إنّ النّهضة المنشودة تبقى مجرّد حلم متى بخست التراث وذابت في دروبه وقد أدركت سائر الأمم قيمة التراث ، فخصّصت له إمكانيات كبيرة لتحقيقه والاستفادة منه في التعريف بشخصيتنا « فخصّصت له الدّول المتقدّمة الإعتمادات الضخمة للتعرّف عليه » (32)

4 ـ المواقف من التراث

تتنازع اشكالية التراث ثلاثة مواقف بارزة :

أ ـ الموقف السلفي

وهو الموقف الذي يرتمي في أحضان الماضوية ويرى أنّ التراث قد حوى كلّ شي ء ممّا مضى

وماهو آت وفيه إجابة لجميع مشاكلنا الرّاهنة ، ويعتقد أصحاب هذا التيّار أنّ تحقيق التقدّم منوط بالتمسّك بالتراث دون الانفتاح على الآخر .

فهذه النظرة إلى التراث نظرة « لا تاريخية لا يمكن أن تنتج سوى نوع واحد من الفهم التراثي للتراث يحتويها وهي لا تحتويه لأنها التراث يكرّر نفسه » (33) بل قل إنّها ساهمت في تجميد الفكر وتعطيل المجتمع عن الانطلاق بحقنه حقنة التخبّط (34)

ب- الموقف التحديثي :

وهو الموقف الذي لا يعتدّ بمرجعية التراث ولا يثبت له أي فاعلية ويرى أنّ رباطنا بالتراث قد ولّى وانتهى ولا يعدو أن يكون الوفاء له حسّا رومنسيا ، بل « إنّه جزء من التخلّف وأنّ الارتباط به نوع من الاغتراب ونقص في الشجاعة وتخلّ عن الموقف الجذري ونسيان للبناء الإجتماعي » (35) .

من المآخذ على هذا التيّار أنّه تغريبي متعلق بتجربة الآخر ، منكر لذاته جاهل لتراثه جهلا يكاد يكون تامّا ، حتّى الجوانب المعروفة منه أسيئ ، فهمها ، والناس أعداء لما جهلوا ، شعاره عند بعضهم « سأنزع عمامتي وأحبّ فرنسا » وعن البعض الآخر« أنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب » إنّها رؤية تكرّس الاستيلاب الحضاري لا سيما وأنّ إلغاء التراث بالسكوت عنه « او بالقول المجاني » فلنلق به إلى البحر « لا يقدّ منا في شي ء إذ لا تنوير ولا تحديث ممكنين بدون ترتيب لهذه العلاقة مع التراث وتنظيمها » (36) .

فهل استطاع الموقفان : السلفي والتغريبي رسم معالم الحداثة ؟

الإجابة قطعا : لا : فلا التراثيون استطاعوا أن يتزوّدوا منه لتغيير الواقع وصناعة المستقبل لقراءتهم التراثية للتراث ولجموحهم عن الفعل « ولا دعاة المعاصرة بمعنى الانسلاخ عن الماضي ومحاكاة إنسان العصر ووسائله تقديم البديل » (27)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ج- الموقف التونسي :

تحاول هذه القراءة التوفيق بين الأصول التراثية ومقتضيات الحداثة : أعني التفتّح على الآخر المتقدّم وتبنّي القيم الحديثة من جانب ، والمحافظة على الهوية والثوابت التراثية من جانب آخر .

هذه النظرة لا تفقد التراث قيمته لأنه مقوّم من مقوّمات الأمّة ، كما لا تعتبره مدوّنة حلول نهائية ، وعليه يضحي شرط التقدّم المواء مة الحقيقيّة بين التراث والحداثة إذ لا معاصرة دون أصالة صادقة دون معاصرة فاعلة » (38) وإلى هذا المعنى أشار " نهرُو " بقوله : إنّ علينا أن نتطلّع إلى المستقبل وأن نعمل له جاهدين وأن نحتفظ في نفس الوقت بتراثنا ماثلا كي نستمدّ منه القوّة والعزيمة ... » (39)

---

* الإحالات

1 ـ محمد عابد الجابري / التراث والحداثة ـ ص 11 ـ المركز الثقافي العربي ـ ط 1 / 1991

2 ـ انظر : لسان العرب / ابن منظور (مادة : ورث)

3 ـ محمد عابد الجابري / المرجع السابق ص 22

4 ـ سورة الفجر / الآية 19

5 ـ سورة مريم / الآية 6

6 ـ أكرم ضياء العمري / التراث والمعاصرة ـ ص 26 ط 2 ربيع الآخر 1406 هـ

7 ـ محمد عابد الجابري / المرجع السابق ص 23

8 ـ محمد عابد الجابري المرجع السابق ص 23 ـ 24

9 ـ أكرم ضياء العمري / (المرجع السابق) ص 29

10 ـ سعد غراب / كيف نفهم التراث ـ ص 12 ـ الدار التونسية للنشر 1990 ط 1

11 ـ حسن حنفي / التراث والتجديد ـ ص 12 ـ 13 ـ مكتبة الجديد ـ تونس

12 ـ إذا أخذنا التراث العربي كمثال نجده قد تأثر بالتراث اليهودي والمسيحي والهندي والفارسي واصطدم بقضية التفاعل في مجتمع غير متجانس

13 ـ محمد عابد الجابري / (المرجع السابق) ـ ص 45

14 ـ سعيد بنسعيد / الايديولوجيا والحداثة ـ ص 74 المركز الثقافي العربي ط 1 ـ 1987

15 ـ مجلة الملاحظ / مقال لسليم اللغماني : تاريخ 13 / 1 / 1993

16 ـ حسن حنفي / المرجع السابق ـ ص 30 ـ 31

17 ـ راجع مجلة الهداية عدد 6 ـ سنة 15 / 1991 ـ ص 69

18 ـ محمد عابد الجابري / التراث والحداثة ص 60

19 ـ عبد المجيد الشرفي / في قراءة النص الديني ص 28 ـ سلسلة مواقفات 1 ـ د . ت للنشر ط 2 ـ 1990

20 ـ زكي نجيب محفوظ / تجديد الفكر العربي ـ ص 47

21 ـ برهان غليون / اغتيال العقل ـ ص 311 ـ دار المعرفة للنشر ـ تونس ط 1 ـ 1989

22 ـ محمد عابد الجابري / الخطاب العربي المعاصر ـ ص 57 ـ بيروت ـ 1982

23 ـ محمد عابد الجابري / المرجع السابق ـ ص 57 ـ ص 58

24 ـ محمد عمارة / نظرة جديدة للتراث

(أكّد محمد عمارة أنّ أيّ أمّة لا تستطيع أن تسير بقدم راسخة وثابتة وشجاعة إلاّ إذا وعت جذورها في تراثها وربطت خيوط حاضرها بماضيها ومستقبلها بما ماثلها في صفحات ماضيها القريب والبعيد ...)

25 ـ محمد عابد الجابري / نحن والتراث ص 21

26 ـ المرجع السابق ـ ص 23

27 ـ المرجع السابق ـ ص 22

28 ـ سعيد بن سعيد / المرجع السابق ـ ص 74

* (انظر نفس هذا المعنى مع محمد عابد الجابري بقوله « أنّ التعامل مع التراث يمرّ في آن واحد بلحظتين متزامنتين : لحظة الفصل ولحظة الوصل : أنّ نفصل عنّاالتراث ونضعه في مكانه التاريخي وننقده ونرتبه ونتحرّر من التراث كشيء يملكنا .. لنجعل منه شيئا نمتلكه ... » (ص 257 ـ ص 315 / التراث والحداثة)

29 ـ انظر مجلة الهداية : / عدد 6 سنة 15 جوان 1991 / ص 70

30 ـ حسن حنفي / المرجع السابق ـ ص 11

31 ـ محمد عابد الجابري / التراث والحداثة ـ ص 33

32 ـ سعد غراب / كيف نفهم التراث ص 34

البقية ص : 41

الأمـــم المـتحـــدة

قـــراءة فـي واقـــع المنـظـمة الاممـيـة
فـــي ذكـــرى ميـــلادها الخـمـــين

بقلم : محمّد بالراشد

1 ـ الحرب تفرض وجود الأمم المتحدة :

انتهت الحرب العالمية الثانية عسكريا بتفوق الحلفاء وبهزيمة المحور ، وبالقاء قنبلتين ذريتين على اليابان .هذه النهاية العسكرية تزامنت مع خاتمة اقصادية تمثلت في بعث مشروع مارشال لاعادة اعمار اوروبا .أما سياسيا فإن نهاية الحرب العالمية الثانية حملت معها ولادة منظمة الأمم المتحدة في 24 أكتوبر 1945.

ميلاد المنظمة الأممية جاء معلنا عن مسار جديد للإنسانية . فلا غرابة إن ورد في ديباجة ميثاق الأمم المتحدة ما يلي :

2 ـ نحن شعوب الامم المتحدة :

وقد آلينا على أنفسنا ان ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد جلبت على الانسانية مرتين أحزانا يعجز عنها الوصف .

وأن نؤكد من جديد ايماننا بالحقوق الأساسية للانسان وبكرامة الفرد وقدره ولما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية

وأن نبيّن الأموال التي يمكن في ظلها تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي .

وان ندفع بالرقي الاجتماعي قدما ، وأن نرفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح ....

اليوم وبعد خمسين عاما من ولادة المنظمة يبدو شرعيا الوقوف عند هذه المنظمة ومدى وفائها بالتزاماتها ومدى قدرتها على تحقيق أهدافها مستقبلا .

3 ـ انجازات هامة رغم ثقل الموروث :

لم تكن نشأة الأمم المتحدة وليدة الصدفة ولا وليدة رغبة تلقائية من الدول لبناء مؤسسة من شأنها السير قدما بها إلى التقدم ، بل كانت بالأساس وتعبيرا عن توق لتجاوز ويلات الحرب سبقته محاولات باءت بالفشل .فأوروبا وهي الطرف الأكثر تضررا في الحرب العالمية الثانية سعت منذ مؤتمر فينا سنة 1815 إلى التكتل للابتعاد عن مآسي الحروب التي خلفتها حروب نابليون .

أمّا المحاولة الهامة التي جاءت لتعبر عن رغبة ملحة في عدم الالتجاء إلى الحروب فهي عصبة الأمم التي بعثت سنة 1918 أي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

غير أنه لا بد من لفت النظر إلى أن البحث في أسس الأمم المتحدة ليس بخوض في تاريخ

هذه المنظمة وانما هو اتباع للمنهج التاريخي لأجل الوقوف فقط على الموروث الذي شيّدت على اثره الأمم المتحدة .

عندئذ يمكن القول إنه بعد مرور خمسين سنة على نشأتها تمكنت الأمم المتحدة من أن تكون فعلا منظمة : حكومية ، عالمية ، شاملة . فهي إطار لما ترتئيه حكومات الدول الأعضاء (1) كما أن انخراط كل دول العالم تقريبا في هذه المنظمة جعل العالمية من مميزاتها الأساسية . وهي شاملة بمعنى تجدّ في معالجة كل المشاكل السياسية ، الاجتماعية ، الثقافية والاقتصادية أي هي تسعى إلى الوفاء بالتزاماتها .

هكذا واجهت الأمم المتحدة ولا زالت مسألتين : الأولى تتصل بثقل التركة والثانية تتعلق بتعدد الاهداف لكن رغم ذلك فإنّ للأمم المتحدة من الانجازات ما يسمح لنا بالقول ولو بصفة نسبية إن هذه المنظمة تمكّنت من انجاز الكثير حيث :

- اصدرت الاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي صار يمثل التزاما أدبيا ومعنويا لمختلف الدول والحكومات وليكون تعبيرا عن إرادة دولية في القطيعة مع الميز العنصري بمختلف أصنافه .
- دعمت حركات التحرر الوطني ووقفت إلى جانبها .فمثلا وقفت إلى جانب الجزائر رغم ان فرنسا تعتبر مثل ذلك الأمر تدخلا في شؤونها الداخلية . وغيرها من حركات التحرر التي كانت الأمم المتحدة منبرا للتعريف بقضاياها .
- قامت بجهود كبيرة ولازالت لحماية اللاجئين وتوفير سبل حياة « كريمة » لهم .
- نجحت في ارساء السلام في بعض الدول مثل كمبوديا .
- ساعدت بعض الدول على تجاوز بعض الآفات كالمجاعة والأمراض والأمية وزحف الجراد .

4 ـ الفشل الذي قد يطالب بدم جديد للمنظمة الأممية :

إنّ نجاحات الأمم المتحدة في مجالات مختلفة والتي ادل عن رغبة منها في الوفاء بالتزاماتها لا يخفي فشلا ذريعا لها في حل عديد القضايا الحاسمة فهي لم تمنع اندلاع الحروب بين الدول منذ 1945 حتى سنة 1995 ، فالحروب مشتعلة في مناطق عديدة من العالم . كما أن هذه المنظمة الأممية لم تستطع إرساء نوع من التبادل المتكافئ بين الدول المتقدمة والبلدان النامية ، بل إنّ التفاوض حول التبادل صار يتم بعيدا عن أطرها ، وضمن أطر أخرى كالتفاوض بين ضفتي المتوسط . مما يعني بحث الدول عن أساليب جديدة لحل قضاياها خاصة منها الاقتصادية بما يحمل ضمنيا دلالة على فشل الأمم المتحدة .

ومثل هذا الرأي الذي يتجه إلى القول بعجز الأمم المتحدة بدلا عن فشلها يجد سندا له في الوضع الذي آلت إليه المنظمة بعد انهيار الكتلة الاشتراكية وخاصة بعد تفكك الاتحاد السوفياتي والذي فتح المجال أمام الولايات المتحدة الامريكية لتكون الفاعل المركزي على الساحة العالمية في غياب دور هام لأصحاب حق النقض الآخرين فرنسا ، الصين ، روسيا ، بريطانيا .

سيطرة الولايات المتحدة امتدت إلى داخل هياكل المنظمة مما جعل هذه المنظمة في كثير من الحالات تتعامل بمكيالين مختلفين ، فمثلا المسألة الكويتية ـ العراقية عوملت بكل صرامة إلى حد تجاوز غاياتها المركزية أي تحرير الكويت واعادة الأمور إلى ما قبل 2 أوت 1990 ليصل الأمر

حد تجويع شعب وحرمانه من وسائل الحياة الضرورية كالأغذية والأدوية .

لكن في مقابل ذلك لم تعرف المسألة الفلسطينية ذات الصرامة بل إن قرارات الأمم المتحدة المتصلة بهذه المسألة لم يعد لها أية طابع الزامي ، انها مجرّد قرارات تتعامل معها اسرائيل حسب مصالحها الخاصة جدا .

مثل هذا العجز الذي بدت عليه منظمة الأمم المتحدة كمنظمة تلتجئ إليها الدول الصغرى بحل مشاكلها له ما يبرره فهي في تركيبة هيكلها الهام أي مجلس الأمن الدولي الذي هو بمنزلة مجلس إدارة يعاني من خلل في تركيبته التي كانت مكافأة للدول المنتصرة في تلك الحرب التي ولدت المنظمة في أعقابها . لذلك تمتعت هذه الدول اضافة إلى الصين بحق النقض أي حق الاعتراض دون ابداء أسباب على أي قرار منه او من الجمعية العامة التي تتخذ قراراتها بالأغلبية .

عندئذ تكون اعادة هيكلة مجلس الأمن ضرورة ملحة تمليها مصلحة تطوير المنظمة الدولية والمحافظة على مصداقيتها فلا يعقل أن تكون تركيبة مجلس الأمن الدولي تعبيرا عن سنة 1945 لا عن سنة 1995 . إذ من المفروض أن يجسد هذا الهيكل فضاء تتساوى فيه الأجناس والقارات المختلفة . كما أن حق النقض في حد ذاته يستدعي اعادة النظر فيه لأن احتكار بعض هذه الدول لمثل هذا الامتياز من شأنه أن يجعلها توظفه في مصالحها ، وتجعل من المنظمة الأممية تفشل في تحقيق أهدافها . أو يفقدها زمام المبادرة لصالح الدول الكبرى كالولايات المتحدة أو فرنسا ... او لصالح بعض التكتلات كالحلف الأطلسي .

5 ـ الأمم المتحدة ضرورية كضرورة تطويرها :

ونحن ننظر إلى مستقبل المنظمة الدولية بعد خمسين سنة مكللة بالنجاحات لكن دون أن تلغي الاخفاق يمكن القول إن منظمة الأمم المتحدة تظل الإطار الوحيد لحلّ المشاكل الدولية من ناحية ولتحقيق التعاون الدولي من ناحية ثانية . غير أن مراجعة تركيبة بعض هياكلها وطرق تنظيمها من شأنه أن يدعم مكانة الأمم المتحدة لكن قد لا يكفي التساؤل حول مدى ملاءمة الابقاء على دول بعينها تتمتع بحق النقض بل إن التساؤل يمتد إلى ميثاق الأمم المتحدة ذاته .فحياة الإنسان متغيرة بالضرورة سيما في القرن العشرين لذلك اضيفت مهام جديدة للأمم المتحدة منها مساعدة بعض الدول على التحول من الدكتاتورية إلى أنظمة مدنية ديمقراطية وتعددية ومكافحة الجريمة المنظمة والقضاء على الفقر والقضاء على الأمية ... قضايا عديدة برزت بعد خمسين سنة من ظهور الأمم المتحدة تستدعي تطوير المنظمة في ذات الوقت التي تستدعي فيه الحفاظ على كيان هذه المنظمة التي هي جهد انساني تخضع دائما للنسبية .

الهوامش :

1 ـ د . الدقاق (محمد سعيد) + د . حسين (مصطفى سلامة) : المنظمات الدولية المعاصرة ص 38

الشـــاعرة ظبيـــة خميـــس
في رحاب الإتحاف

بقلم : خليفة الخياري

أصدرت الشاعرة ظبية خميس مجموعتين شعريتين ، عنوان الأولى : « انتحار هادئ جـداً » عـن مطبوعات الظبية (القاهرة 1995) وهي المجموعة الثامنة في رصيدها الشعري . وعنوان الثانية : « المشي في أحلام الرومنتيكية » عن دار عيون جديدة (القاهرة 1996) . وتلك آخر ما نشرت في مجال الشعر . وقد وردت علينا المجموعتان في إطار سعينا إلى مزيد استقطاب المبدعين العرب وتعريفهم بمجلة الإتحاف التي قطعت شوطا متقدّما في نشر ملفات عن الحركة الأدبية المعاصرة في كلّ البلدان العربية تباعا .

والمعروف عن هذه الشاعرة الاماراتية أنها لا تستقرّ على جنس أدبي واحد . ولا تؤمن بالأسلوب الثابت في الكتابة ... بل تكتب القصّة القصيرة ، والدراسات الأدبية ، ولها اجتهادات محمودة في مجال التعريب . هذه الأنشطة الثقافية المتعدّدة ساعدت على التعريف باسمها خارج حدود الامارات العربية . وليس إسمها بغريب عن القرّاء التونسيين بالخصوص .

وإذا عدنا إلى مادتها الشعرية التي بين أيدينا نلمس الكثير من التحولات الفنية والمعنوية في مسار هذه الشاعرة . ففي « الانتحار الهادئ » تجنح الجملة الشعرية إلى القصر وتتسربل بإيقاع داخلي متسارع ومحدود في استمراريته لا يتجاوز المقطوعة الواحدة حتى أنه في تبدلاته تجده عند القراءة منسجما مع المعاني أكثر من إنسجامه مع الألفاظ أو التعابير . في حين لا نراها تولي إهتماما بيّنا بالمسألة العروضية ، وذلك ما أتاح لها إمكانيات متنوّعة في تركيب الصّور الشعرية من تعابير بسيطة ومحدودة الدّلالات . وللقارئ أن يتأمّل جيّدا هذه القصيدة القصيرة :

العبارة خانقة ونحن كذلك

الجملة الشعرية ... ساقطة

ونحن كذلك ...

نزداد وعورة

والبسطاء هيّنون كما نهر

عظيم ... وملوّث . (ص 14) .

وعادة ما نرى الفكرة المخيلة توجّه الشاعر حينما تخفّ قيود العروض على لسانه . وتوجّه لسانه موازين الألفاظ عندما ينشغل بالعروض على حساب الفكرة . بينما يظلّ مطلب التوفيق بين

التوجّهين غاية لا يدركها إلاّ القلّة من الشعراء ، وربّما أدركها أحدهم في نصّ وأفلتت منه في بقية النصوص ... لأن إمكانية « قول الشيء نفسه بشكل مختلف تحت إلحاح الحاجة العليا إلى الكلمات المستخدمة تبقى دائما إمكانية خفيّة وبيّنة في الوقت ذاته ... » بعبارة ميشيـــل فوكـو (الكلمات والأشياء) .

وتوابع هذا الأسلوب لا تتوقف عند حدّ المعطى الفني ، وإنما تنعكس عوارضه على المعاني أيضا ، فتتبرّج العبارة وتكشف عن كلّ مفاتنها دفعة واحدة ، وهنا يصعب على الشاعر أن يتخلص ممّا يسمّيه النقاد بالمباشرة (أي اختزال المعاني في الدلالات السّطحية للألفاظ المعبّرة عنها) ، وهذه الشاعرة لا يبدو أنها تولي اهتماما مخصوصا بهذه المسألة بل وتكتفي من القلادة بما أحاط العنق : تعرض المشهد المعاين على الحواس وتبسطها بألوانها الطبيعية مزدانة بغطاء خيالي شفّاف لا تأثير له في الصّور القائمة :

حينما يكون القمر كالفرح
والشوارع مضاءة بالعشاق الطّيبين
والمدن عابقة ببهاء السّلام
وموسيقى الخلود الأزلي
أنظر إلى ذلك كلّه
ثمّ أمضي إلى ألفة وحدتي ! (ص 117)

وعنصر التخيّل في هذه القصيدة أضعف من أن يكون ذا فاعلية في نحت صورة ناهضة على موازنة بين عالمين : عالم الشاعرة الداخلي وهو عالم ضاجّ بالمشاعر والتأمّلات . والعالم الخارجي وهو عالم لا يقلّ عنه ضجيجا وحركة . بحيث يحدث الانسجام بالفصل بين العالمين وإن كانا متشابهين في المشهد . فلا تنوب الشاعرة في محيطها الذي توفرت فيه مجموعة من لوازم الدّعة والسكينة : (الفرح ـ النور ـ العشق ـ السلام ....) ، بل تضع عالمها الشعري الصاخب في كفة الميزان الثانية معادلا ذاتيا للمعطى الموضوعي وليس بديلا عنه أو شرخا منه أو بعض لواحقه ... لأن الفارق المنطقي جاثم لا يتزعزع وشتّان بين عالم يتحقق اجتماعيا وعالم يتحقق لغويا وبصفة فردية . وهذه الموازنة تعيها الشاعرة وتعبّر عنها في مقدّمة المجموعة بما تسمّيه نقلة من الخارج إلى الدّاخل : « في الماضي القريب ، كنت أنشغل بتفاصيل الآخر ـ الخارج ... الآن أجدني أتجه إلى الداخل ـ الذات ، وأكثر ... ربّما لأنني لست واثقة من أن الشاعر يستطيع تغيير مسار الكرة الأرضية ، على الأقلّ في النّص الشعري . » (ص 8) إذ مهما حاولت الانكفاء تظل رموز المجتمع حاضرة في النصوص ولو عن طريق تلك الاهداءات التي تفتتح بها قصائدها : (كادا باتا (أديب ياباني) ـ إرنست همنغواي ـ شريهان ـ نصري حجّاج ـ قيس بن الملوح ـ رودلف فالنتينو ـ رامبو ! ـ إبراهيم عبد الفتاح ـ صاموئيل بيكيت ـ مارلين مونرو ـ وصال خالد ـ ماركيز دوساد ـ سيغموند فرويد ـ وغيرهم من الموتى والمنتحرين والأحياء ...) .

بهذه الخصائص الفنيّة وفي هذه السّياقات المعنوية تقرأ مجموعة ظبية خميس « إنتحار هادئ جداً » . أما مجموعتها الثانية : « المشي في أحلام الرومنتيكية » فلا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبارها مجرّد امتداد للسّمت الذي اتبعته في مجموعتها السّابقة ، حتّى وإن ظلت محافظة على الخصائص الفنية نفسها والمذكورة سابقا . لأن الغوص في صميم الذّات أصبح أكثر عمقا . وأصبحت تقتنص الصّور الشعرية من العالم الأنثوي الدّاخلي ... ممّا يعتمل في الشرايين وفي نبضات القلب وفي خوافي الصّدر ... إنّها تحاول أن ترسم بالكلمة صورة وجدانية متكاملة للصّبوة الكامنة في أغوار النفس وشتّى تفاعلاتها إزاء المتغيرات الإجتماعية الخارجية ، وحيال ما ينصبّ على الكيان من كوابت وزواجر وموانع تجعل منه أداة لتنفيذ القيم وليس منبعا لها ... والتركيز على هذا الجانب السّلبي في الحياة الإنسانية يلمس من مجرّد تأمّل المقطوعات الشعرية التي اختارتها الشاعرة لتستهلّ بها مجموعتها من أشعار امرئ القيس وابــن الرومــي (ص 3 ـ 4) على أنه من الضروري أن لا يقع القارئ في المغالطة التي يحملها العنوان :إذ أن السّير في أحلام الرّومنطيقية لا يعني أن الشاعرة متشبثة بهذا التيار الأدبي الذي يعدّ اليوم من الاتجاهات المتقادمة نوعا ما . ولا يعبّر قطّ عن تمسكها بخصائصه . وأبرز دليل على ذلك أن أسلوبها في الكتابة مخالف تماما لمبادئ الرّومنطقيين الأوائل . بل ينبغي فهمه في إطار نزعة استشرافية ترصد من خلالها الشاعرة العوالم الداخلية للإنسان ، وللأنثى بالتحديد من حيث هي جملة من الأحاسيس والمشاعر تستوجب حضور المعجم اللفظي الرومنطيقي وقد تلتبس بمفاهيمه ... لكنها تختلف عنه في كونها أصبحت من قبيل الآثار المتناقصة يوما بعد يوم في عالم غام فيه معنى الرّوح تماما وانزاحت القيم عن مصادرها الإنسانية الصّرف لتبقى المادّة المقوّم الأوّل للحياة والمقيّم لأشكالها :

أحلام اليقظة .. هذا هو إسمها إذن !

الاسم العلمي لرغبات غير منجزة

للمشاعر الواضحة لأصحابها

والتّائهة للغير ...

للضجيج في الدّاخل

والصّمت في الخارج

للمركب الشراعي الذي يطفو في بحر المخيّلة

غير أنّه لا يرسو

يظلّ متجوّلا حتى يسقط رأس صاحبه ... (ص 66)

وإذا رمنا إيجاز أوجه المعاني التي أثارتها ظبية خميس في هذه المجموعة ، أمكن لنا ترتيبها تحت ثلاثة عناوين كبرى : الاغتراب ـ الاستلاب ـ التفرّد . وهي عناوين متداخلة الدّلالات ومتعالقة .

أ ـ الاغتراب :

وهو أكثر العناوين قدرة على وصل هذه المجموعة بالمعجم الرومنطيقي . لكن طعم الاغتراب هنا مخالف لطعمه القديم ، ومرتبط بعالم الأحلام وإن كانت اليقظة هي أصله والوعي سببه والشعر منفذه . وله أوجه متعدّدة . فهو يحمل معنى التنكر لنمط الحياة المعاصرة واستحضار روعة الأمس الذي أصبح في الذاكرة نموذجا مفتقدا لوجود جدير بالذّات الإنسانية ، ويمكن الاكتفاء بالمقطوعة الثانية من قصيدة « هبوب الهوى » للاستدلال :

خيول الوداع ...ونوق الحجاج
والصّبايا المنشدات
خمار ابن أبي ربيعة فوق رؤوسهنّ
والموشّى على الصّدور
والبريسم حول كعوبهن
نقرن الدّفوف
وغنّين بكحل اثمد يذوب في عيون العاشقات ... (ص 8)

إذ تظهر الرّدة الشعرية كاملة ونافية لكل مظاهر العشق الآلي التي افترضتها الحياة الراهنة وتتكثف في سياقها علامات الزمن المفقود توظفها الشاعرة توظيفا فنيًا دقيقا (النّوق ـ الخمار ـ ابن أبي ربيعة ـ الدّفوف ـ الكحل ...)

ويحمل الاغتراب أيضا معنى النبوّة (لكم دينكم ولي ديني) إلاّ أنّها نبوّة أرضية مترفّعة ورافضة للوضع البشري الزائف ومتسامية عن مظاهر تردّيه وانحطاطه وفاضحة لخوافيه البشعة وتورد الشاعرة في قصيدة : « كربلاء المسرّات » وجها من وجوه ذلك الوضع متكلّمة بالاسم المطلق للمثقفين وهم أشبه خلق الله بالأنبياء في غربتهم المعاصرة :

هذه الحياة غير مقنعة
جوفاء كمعدة دينا صور إنقرض
لا بهاء لنا
لا بهاء للأوطان بنا
لا بهاء للجموع الراكعة
لوّثوا أكاذيبهم حتّى العمى
خيّطوا بدلاتهم من جماجمنا
تسلّلت كلابهم المسعورة حتى أفئدتنا
صرنا أقلّ من وزن الكلمات

وبقلوب أثقل من حلكة ليل لا نهائي ... (ص 187)

وحريٌ بنا أيضا أن نتوقف عند مظهر آخر من مظاهر الغربة له علاقة بموضوع ترصده الدارسون وأكثروا القول فيه ، وهو صورة المدينة في الشعر المعاصر . فكلما حضرت في الشعر إلاّ وكان الاغتراب رديفها وملمحها الأكثر جلاء . وهي في هذه المجموعة أشدّ فتكا بالإنسان من النار ومثلها في التهام نفسها حينما لا تجد لجحيمها وقودا :

كل شيء يفتك بك

موائك

مائك

وأجنّتك المخلقة من العورات

السّفاحين ، واللّصوص

والمردة

يفرّ منك الشعر ذعرا

ويهرم فيك الغناء ... (ص 84)

وهي الزنزانة الضخمة التي لا توحي جدرانها سوى بالرّغبة في الانطواء والانكفاء على الذات ، وفي أحسن الأحوال لا ترغّب الإنسان سوى في الرّحيل عنها :

المدن رسائل الله إلينا

ولا رسالة تشبه غيرها

حقائبي تشتاق الرّحيل

وروحي أقفلت أبوابها هنا ... (ص 106)

ب : الاستلاب :

والمقصود بالاستلاب ذلك الاحساس الذي يعتري الشاعرة فنراها تعبّر باسم النساء عموما عن خلوّ المرأة من معاني أنوثتها أو انقطاع تلك الخصائص الطبيعية في ذاتها عمّا حولها حتى تستحيل شخصيتها إلى شخصية منفصمة تتلوّن رغائبها بألوان شتّى ولا تجد لتلك الألوان انعكاسا في محيطها وبيئتها الخانقة .

ومن ضروب الاستلاب أن يفتقد الجسد في أوج نضجه إمكانية تأدية وظيفته الطبيعية فتتحوّل مطالبه العادية إلى أحلام تبدو بعيدة المنال ومستعصية ترتبها الشاعرة باستجراء وصراحة كنا إلى وقت قريب لا نجدها في دواوين الشاعرات العربيات : (لغة سريّة ـ ص 11 ـ 12) . وعن ذلك يتولّد شكل آخر من أشكال الاستلاب متمثلا في خلوّ الذات من كل مظاهر البهجة والسّعادة وتحوّل الصّدر إلى قبر تتدفن في جوفه مجمل الأحلام الأنثوية :

خلف بوّابات اليأس الكثيرة
ما الذي نداريه ؟
(.....)
ولا يذود عنّا انتحارنا سوى الموت
الموت في الكلمات
حروفك سوداء أيتها المخيّلة
ذلك أنك ارتعشت كثيرا
أمام طاعون الأماني الحالمة
الممرّات المغلقة
وسعادتك الواقفة على شرفة حلم بعيد ... (ص 48)

ويتجلّى الاستلاب الروحي كذلك في انعدام الثقة في الطرف المقابل والشريك الأزلي في رحلة الوجود وانعدام القدرة على امتلاكه أو الاحتفاظ به . وتلك الحالة الإنسانية الشائعة والفاجعة تعرضها الشاعرة مثقلة بالأسطورة ومفعمة بعوالمها السّحرية ومختلطة برموزها لكأنها تترفّع حتى عن مجرّد عرض صورتها على المتقبّل عرضا مباشرا :

التعاسة عمياء عن تعاسة الآخرين
غيورة ونامشة ...
تبكي المرأة زوجها
وبه تحلم العاشقة !
يا روح « أفروديت » دعيني أناجيك قليلا
لم تأخذ « كارمن » روحها
إلاّ إلى الموت الدّاعر
أمّا « إيزيس » فإنها تحوّلت إلى آلهة » (ص 23)

وعندما نحاول الالمام بكل مظاهر الاستلاب نرى معانيه تتوسّع إلى أن تختلط بالظاهرة السّابقة (الاغتراب) وتمتزج بمعانيها امتزاجا كليًا . ويبدو الامتزاج حتى في بعض القصائد . ويمكن في هذا المضمار عقد مقارنة بين « روح منهوبة » (ص 26) و « طاعون الأماني الحالمة » . وكذلك بين قصيدة : « الدمعة العميقة » (ص 97) وقصيدة : « مخدّة المخادعة » (ص 161) ... الخ . وفيها تتمتّن الوشائج بين المعنيين . إلاّ أنه مهما تعددت معاني الاستلاب فإنه يظل وثيق الصلّة بالخواء الرّوحي ومنفتحا على العنوان الثالث وهو الاحساس بالتفرد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومعايشة هواجسه .

ج ـ التّفرّد :

وليس أعسر على الإنسان من أن يجد نفسه منعزلا وجدانيا وسط مجموعة لا تعطي لرغائب الفرد أدنى أهمية . ولا أقسى على الأنثى من أن تذهب الأيّام بوجيب فؤادها دون استجابة ... والمشي في أحلام الرومنطيقية ليس إلاّ تطوافا في صميم ذات منفردة من تلقاء نفسها أو متفرّدة (تحفظ ولا يقاس عليها !) . والمتفرّد عادة ما يتقمّص هموم كلّ الناس ولا يتقمّص همّه سوى صدره إلى أن تغيم اللّوحة ويتعتّم المشهد :

تمقم اليأس الذي تنام عليه كلّ ليلة
هو وسادتك التي لا تودّ أن تفارقها
(....)
كل أفراحك أقنعة لساعات زائلة
تقودك في آخر الأمر
من رأسك إلى المخدّة المرعبةَ (ص 19)

وتفرض الذاكرة رغبتها في الارتداد إلى زمن البدايات الذي يبقى في ذهن الإنسان المعاصر المشهد الأنقى والأكمل وعادة ما ترتبط الردّة الذهنية برمز معيّن . كأن يحضر « نوح » في قصيدة « يابسة الغرباء » حاملا معه الأصول الأولى لمعاناة الإنسان :

نوح الذي انتقانا من بين مخلوقات الرّب
طفا على المياه
وأودعنا اليابسة
غير أننا لم ندرك أنه انتقانا
سرنا كما يشير الهوام
ضاقت بنا الأجساد
وأضعنا الرّوح في يابسة الممرّ التائه ! (ص 168)

تحت هذه العناوين الثلاثة تنضوي أهمّ القضايا الوجدانية التي تقوم عليها هذه المجموعة الشعرية . وتنبث بين نصوصها حاملة لارهاصات وعي عميق بمأساة الإنسان المعاصر في غربته وضياعه وانبتات روحه ... في وقوعه تحت كلكل نظام اجتماعي ثابت كالغول في الأساطير القديمة لا يجمع إلا ليفرّق ولا هدف له من زرع الغربة الروحية بين الأفراد سوى إحكام سيطرته على الأنفس وتجهيزها لتكون له اللقمة المستساغة ما بقي الإنسان على هذه الأرض ... فإن يكن الشعر هو وسيلة ظبية خميس لمواجهة الثبات السّالب والتحجّر القاتل فكذلك كان في كل العصور : راية الباحثين عن أصل الحياة ، وعصا التّرحال حينما يملّ المقام ، ومنارة الخلاص عندما تشتدّ

الحلكة وتطبق . وماء الوجود الذي لا يطلب الارتواء منه إلا من خبر غوامض الدّهر وسبر بواطن العصر وظلت ذائقته أقوى من بهرج الحياة الزائفة وظل في بحثه عن البديل غير عابئ بالسّراب الذي يحسبه ماء وهو القحط في عنفوانه ...

تلك الثورة الوجدانية الصّاخبة تضمنتها رسالة الشاعرة التي حملها البريد إلينا . فهل من رسالة أصدق من هذه المكاشفة الأدبية ؟ وهل من شيء عندنا أقدس وأعظم من ثقة يمنحنا إياها مبدع وهو لا يعرف عنا سوى ما قرأ من نتاج مدادنا ؟ وهل من أداة يتخذها المبدعون ميثاقا ليكونوا كتلة واحدة صمّاء ... أكثر متانة من هذه الرؤى يتخذون منها حماما زاجلا يصل المشرق بالمغرب مبشرا بالحياة ـ الفعل وباعثا للعزيمة التي أوهنتها المسافات ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بقية ما في ص : 30

* يرى محمد علي كبسي « أنّ قراءة التراث ليست مجرّد ملاحظات وتفسيرات نفسّر بها الماضي وليست ترتيبا لموضوعات التراث بل حميما للكشف عن جوهر القراءات والظاهرات التراثية وربطها بحقلها التاريخي حتّى يتحوّل المعنى إلى أبنية فكرية ... »

(قراءات في الفكر الفلسفي المعاصر ـ ص 126)

33 ـ محمد عابد الجابري / نحن والتراث ص 13

34 ـ انظر : سلسلة مراجعات (منتدى الباكالوريا) ص 27 ـ 28 / سنة 94 / 95 منشورات الأمانة العامة للشباب والتربية

35 ـ حسن حنفي / المرجع السابق ص 30

36 ـ سعيد بن سعيد / المرجع السابق ص 74

37 ـ أكرم ضياء عمري / المرجع السابق صص 11 ـ 12

38 ـ أكرم ضياء العمري / المرجع السابق ـ ص 13

39 ـ أنور الجندي / التراث والمعاصرة ـ مكتبة الجديد ـ تونس ص 9

النص الغائب في « صديد الروح »
لـ : سوف عبيد

بقلم : حمادي القسمطيني

إنّ المناهج الحديثة على اختلافها سعت ولا تزال الى تفجير النّصوص وسبر أغوارها وخاصّة الحافة منها Connotatifs وتمكنت من الوصول الى أنّ النّصوص في حقيقتها تراصف لطبقات نصيّة تحكمها جدلية التجلّي والتخفي ، وتكون الجليّة منها نصوصا صروحا على حدّ تعبير ولاك في حين تتحقق الخفية نصوصا غائبة .

فماهي النّصوص الغائبة ؟

إنّ النصّ الغائب هو مجموع النصوص المنتشرة التي يحتويها النصّ الشّعري في بنيته وتعمل بشكل باطني عضوي على تحقق هذا النص وتشكل دلالاته ومن ثمّة تتعطّل أيّة عمليّة فهم واستيعاب لهذا النصّ المركّب ولهذه الدلالة الغامضة بدون معرفة حقيقية بهذا النصّ الغائب وتخريج معانيه واضاءة ظلماته الرّمزيّة (1)

ان انتشار النصوص التي يحتويها النصّ هي عين التّداخل النصّي وهو التّفاعل بينها أي تناصًا . فظاهرة تبادل النّصوص أشلاء نصوص دارت أو تدور في فلك نصّ معتبر كمركز وفي النهاية تتّحد معه هو واحد من سبل ذلك التفكك والانبناء (2) على أنّ ما تجدر الاشارة اليه هو أنّ هذه النّصوص المنتشرة بمستويات متفاوتة من خلالها نتعرّف على نصوص الثقافة السّالفة والحالية واستنادا الى هذا المعطى يكون النص الغائب منخرطا ضمن مسار تناصّي يتمثّل فيه النص / الصّرح والخطابات الشفويّة والمكتوبة المتخيلة والنظرية ، السياسية أو الدينية

فما تجليات النص الغائب في صديد الرّوح أنئذ ؟

ان أكثر التجليات حضورا في مجموعة قصائد الدّيوان المدونات ، الصّيغ ، النّماذج الايقاعية ونبذ من الكلام الاجتماعي .

1 ـ المدونات

أ ـ القرآن

انّ القرآن كنص غائب شغل فضاء ممتدّا بحكم تسرّبه في خلايا النّسيج الظاهر قصصا وصيغا .

لقد وجد سوف عبيد في قصة يوسف المجبوب ويونس المبتلى وموسى وعصاه نصوصا استوطنت المخبأ من بنية النّص الاصل وأمنت له الضمور ففي قصيدة « النّقطة » يقول :

نقطة الباب ســـوداء
في غيــاهب الجــبّ

يا يوسف	نقطة الحبيبة
نقطة النّـــون ســـــوداء	نار في رسالتها إلى حبيبها
فـــي بطن الحوت	السّجين
يا يونس	

وفي قصيدة « اولاد الحلال »

يا ويحنا لما اشتعلت عين سيّدنا

مرّة

زجرنا بعصا موسى

يا أولاد الكلاب

دسّوها في التّراب

الاّ أنه اذا كان هذا شأن تداخل نصّ الشاعر مع القرآن قصصا فالتّداخل على مستوى الصيغ كان أكثر كثافة فلقد وجدتنا أمام صيغ تواترت بشكل كثيف في القصائد فتخللت « العاديات صبحا » « الجوع » و « الشمس وضحاها والقمر اذا تلاهـــا » فـــي « حديـــث الفتـــى » و « والتين والزيتون وطور السنين ف « القصور » وغيرها .

ب- النصوص الابداعية

« صديد الروح » نص بنين اضافة الى استناده الى النص المقدس بالتجادل مع نصوص ابداعية طالت التالد والطارف

- النصوص الابداعية التالدة

تعاقبت أصداء النصوص القديمة على المجموعة مؤكدة فاعليتها في انتاج المعنى ورصدنا منها « ألف ليلة وليلة » رافدا حاكاه الشاعر كاتبا قصيدة « شهريار »

الليلة

ستنتظر الديك

كثيرا

فشهرزاد أمست

خرساء

وقصيدة « البلهوان »

كان يا مكان

في قديم الزمان

ولد ليس له أحد

الا القصبة يراوح أصابعه عليها

ينفث فيها فيستريح

كما أنه لا يفوتنا تضمنة حضوردیوان أبي الطيب المتنبي وأبي نواس وقد تزويا في منطقة غيهب من بعض القصائد ، فالملفوظ الشعري استوطن مساحة من قصيدة « الصورة الشعرية »

صـــاح المخـــرج | عيـــد بأية حال
اقطع ... اقطـــع | عدت
واصلـح يا متنبي | يا رصاص ؟

في حين اختار القول النواسي بقعة لا مرئية من « المقص »

ارفع رأسك يا | إنّما تحت الجبّة
لترى الجلوس | طار على عصفورة
والدنانير | جناح المقص
وما ضر لو كان جلس

ـ النصوص الابداعية الطارقة

نصّان حديثان بدا لي تقاطع النص الشعري المدروس معهما بشكل تجاوز نوع العلاقة الترابطية التي نشدته الى القديم من المدونات فأولهما تونسي معدود من قبل أرقى الانتاجات في مجال الرواية « حدّث أبو هريرة قال » للأديب محمود المسعدي وثانيهما من مجال الشعر صاحبه مؤسس الشعر العربي الحديث بدر شاكر السياب فقراءتنا لقصيدة « حديث الفتى » لا يمكن أن تغيّب عنا مدى حضور تجربة الجماعة في بناء القصيدة :

على مشارف الحي
لاح الفتى
فطار كل الحي
نحو الفتى
باليًا ... أغبر كان
هلّ الفتى عاد الفتى

كما أن ممارستنا لـ : غاسل الموتى تعجل بقفز قصيدة « حفار القبور » الى أذهاننا

يارزاق يا فتاح
يا قابض الارواح
هاتهم على الالواح
الموت في المساء
والدّفن في الصباح

2 ـ الصـــيغ

نعود ونؤكد أنّ النص الغائب هو اعادة كتابة للغة وقد سبقت النسيج الاصل على أشكال عدة منها الصيغ ، ويعد الصيغ المتعاقبة التي رصدنا ونحن نتحدث عن المدونة ذات المرجعية القدسية فان « صديد الروح » كانت حيزا لصيغ انضافت الى القرآنية منها فصيغة « كان يا مكان » في قصيدة « البهلوان » تستمد كينونتها من مجال فنّ السرد قديمه خصوصا وصيغة « عيد بأية حال عدت ... » صيغة تحضر في ذاكرة المتلقي فاذا بها عجز بيت للمتنبي يقول فيه :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عيد بأية حال عدت يا عيد .. بما مضى أم لامر فيك تجديد

ثمّ إن السّطر الشعري المتواجد في قصيدة المقصّ هو صيغة « ما ضر لو كان جلس » تعبيرة تماثل عجزا لبيت قاله أبو نواس واعتبر في أنه ثورة على تلك الوقفة الطللية ذاك التقليد المتملك بالقصيد العربي قرون طوال

قل لواقف على رسم درس .. مـــا ضر لـــو كـــان جلس

وفي نفس هذا السياق تقاطعت قصيدة « الرسالة » مع نص خطبة طارق بن زياد وهو يهم بفتح الاندلس متوجها لجيوشه قائلا :

البحر أمامكم والعدو وراء كم

وتقاطعها ذا برز في هذا المقطع

افتح عينيك يا ولدي

فالعدو أمامك

وهكذا برز لنا كيف يضع النص الغائب حدا لفطام الذاكرة الذي نعيش ويستحضر لحظات هاربة من المخزون الثقافي المكتسب مما ييسّر علينا استيعاب حيثيات خطاب الشاعر .

3 ـ النماذج الايقاعية

ما المقصود بالنماذج الايقاعية ؟

إنّ الإيقاع هو ذاك الجانب المتحقق من الوزن أي المجسّد النظري (2) وعلى هذا الأساس يصير الايقاع هو النغمية الناجمة عن ترتيب التفعيلات ومقاطعها ... والنماذج الايقاعية هي تلك التراكيب الجزئية أو الاسنادية المكونة لقصائد « صديد الرّوح » وتتلاقى من حيث الكم الفونولوجي مع أخرى استقلت فضاءات من نصوص سابقة لنصه يقول صاحب « الأرض عطشى » في قصيدة « التمثال والخليج »

لتجلس قارئا على الزوار

كتابك الذي في الجيب

واذا الاوراق تطايرت

بأي ذنب تلك المدرسة هدمت ؟

فالسطران الاخيران يحويان مايعادل من حيث الكم الايقاعي ما ورد في القرآن فإذا الأوراق تطايرت بأي ذنب ... هدمت « تكاد توازي » اذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت » كما أن نفس الصورة تعاود في القصيدة « زمن الازمنة »

انه زمن طيوره من أبابيل

ترمي الاطفال

بالقنابل

حيث يكاد المقطع أن يوازي نغميا « طيور أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل » لكن ما نؤكده هو أن أمثلة هذه النماذج عديدة دون أن تحجب عنا أهمية المنطوق السوسيالي كرافد مبلور لنصوص المجموعة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكلام الاجتماعي

الكلام الاجتماعي جماع ما يتداول على لسان المجموعة مشافهة ،هذا المقول الشعبي غالبا ما يحضر قوالب جاهزة وأمثلة وأحكام هي محصلة معاشرة الحياة اليومية لكن حضورها يبقى لا نصيا الى حين تحوّلها نصاً علما وأن التحول النوعي الطارئ عليها موكول الى أمرين يصنعان نصيتها

1 ـ تحول المتفوه به الى حيز مكاني عبر كتابته خصوصا وأنه ثمة من يرى النص هو عين الكلام المكتوب (4)

2 ـ الكلام يكسب نصيته عبر اكتسابه للأدبية « وهي مجموعة الاجهزة الشكلانية التي يتحول بها الكلام من مجرد خطاب عادي الى ممارسات أدبية (5)

هذان القانونان استلهمهما سوف عبيد وصيّر الخطاب الشفوي الخلو من سمات نصيّة الى خطاب مكتوب يتمتع بقدر من الشعرية ووقعنا في المجموعة عند اندساس الملفوظ السوسيولوجي ضمن ظفيرة المنطقة المبؤورة من النص الظّاهر كنص غائب اتخذ من مساهمته في قولبة خلقة النص تأشيرة العبور الى المنطقة السطحية من النسيج

ففي قصيدة « البدو » نستمع الى :

أحفادنا البدو
كانوا اذا وعدوا ... صدقوا
فالكلمة تخرج من الحلق
مرة واحدة ... قالوا
كالرّوح تماما

فالمقطع ذا اختزال لملفظ لهجي مفاده « منين تخرج الكلمة تخرج الروح » هذا الكلام يختزل موقف الشاعر من الحاضر الموجود رغم صمته عنه . فألفاظ أجدادنا ، كانوا ، اضافة الى صيغة الافعال الماضية (وعدوا ، صدقوا) تجعلنا في فلك آونة منتهية في آونة قيمية يشد التلازم بين الوعد من جانب وتحقق الوعد من آخر ما ارتأينا كما أن التلازم بين رفعة الاخلاق والجدود دافع للسؤال عن سر تغييب لحظتنا نحن السلوكية التي لو كانت مماثلة للذي كان لما وقف شاعرنا وقفته الطللية يبقي السؤال هل نستطيع أن نكون الماضي حتى في مستوى الاخلاق ؟

ان التواقت بين الوعد وصدق الوعد لدى الغابرين لم ينتصب معيارا أخلاقيا واحدا رآه الشاعر ساكنهم بل حتى القناعة شغلت مساحة من نفوسهم :

أجدادنا البدو
يأكلون ما حضر
يلبسون ما ستر

لا يخفى صدى المقول العامي « ياكل ما حضر ويلبس ما ستر » الذي يحيل على أن الجدود لهم وشائج مع شظف العيش وهم مع ذلك قانعون فهل هي الدعوة للرضى بما حضر وما ستر والكف عن المطالبة بالحياة الكريمة ومن ثمة الرغبة في قتل الطموح لدى كل من يروم تكسير

أغلال الفاقة ؟ نواصل ممارسة القصيدة فنسجل :

سابع السموات

لم تكن مرة

أطول من أنف

أقصرهم

هذه الكلمات اعادة انتاج تعبير مجازي يشير الى تجذر الكرامة والانفة فيهم « خشومهم في السماء السابعة » وهي في آن واحد افصاح عن توق الشاعر لانبعاث الفحولة . لكن هل أن الفحولة والأنفة انعدمت حاضرا وان كان هذا كهذا أفليس الغليان المنتقل من المخبوء الى المفضوح أحيانا في بقع مختلفة من الأرض العربية دليل على أن الانفة حية بيننا لكنها تختلف بداهة عن سابقتها لاختلاف المرحلة التاريخية وخصوصياتها ؟

اذا كان شأن الشاعر مع الكلام الاجتماعي قيميا في القصيد السابق فانه يتخذ بعدا منطقيا لا منطقي « قول قزح »

النجار

داره بلا باب

باب الحداد

بل قفل

« النجار داره بلا باب » تركيب اسنادي اتخذ فصاحته بعد أن كان مادة عامية « باب النجار محطم » وفيه تتزاوج البساطة التعبيرية مع العمق المضموني . فالشاعر خلص اثر استقرائه الواقع الى سيادة اللامعقول على المعقول ، الى حلول اللامنطق بدل المنطق والى انقلاب الحق خرقا لنواميس العصر ومقتضياته كل هذا ولسان حاله يردد أفيعقل أن يكون منزل النجار بلا باب وكأننا به يتخذ الصورة جسرا يمر به الى تعرية ظاهرة مجتمعية تتمثل في حرصها على انتقاد الغير وتسويته والحال أننا أجدر منه بالترياق الذي نمنح .

أما في قصيدة « ثلاثية » فسوف عبيد وهو يقول

حصير

ظل

شاي

وامرأة في خريف العمر

تنسج ظفائر الشيب

وتقول : العام أكمل الزفاف

ينبش في ذاكرتنا ويجبرها على استحضار مثال « العزوزة هازها الواد وتقول العام صابة . مثال يترجم عن تعجب الشاعر من أولئك الذين يشرعون لأنفسهم الحلم بعد اقصاء مقيت للواقع وسلطانه .

إذن تلك أهم تجليات النص الغائب في « صديد الروح » لكن ما الكيفية التي تداخل بها نصه

وتواصل مع النصوص السابقة له ؟

تقول جوليا كريستيفا « لم يعد النص الغائب اجترارا لنص آخر على النمط القديم ـ التضمين ـ بل غدا توظيفا معقدا في أغلب الاحايين يولد تفاعلا خصبا بين النصوص أي تناصا فالتفاعل النصوصي هو في آخر الأمر تواصل . والتواصل قد يعرف أشكالا بدائية وأخرى معمقة الى درجة معقدة . لكن التحول أو بالأحرى الحلول في المنطقة القصوى للتداخل لا يمكن أن يكون وليد الطّفرة بل هو يؤسس قياسا لقانون النشوء ومن ثمة فإني أعتبر التضمين الشكل الجنيني للتلاقح بين النصوص وبداية عقبتها أخرى الى أن تحقق الشكل المعقد كما ورد على لسان كريستيفا وهو التواصل الحاوري بين النصوص ذاك الذي لا يغدو معه النص الاصل نصا بما هو عبارة عن مركب كيميائي متعدد الغازات تيسر عملية فك عناصره بل يتنزل نصا كثيف العناصر لكن يعسر فكاكه للعلاقة الانصهارية بينه وأخرى .

1 ـ التضمين

لقد أكد سوف عبيد أن القرآن تنزل مرجعا لغويا لقصائده ففي قصيدة الجوع :

في صباي
يا ما ركضت حافيا
في البراري
على جريدة أمتطيها
حصانا
والعاديات صبحا
بلا ظفر تعود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فـ « العاديات صبحا الواردة في القرآن إشارة إلى الخيول الناضحة عرقا صيغة استلهم سوف صورتها حاله وحال رفاقة لا هثين في عبث طفولـــي لا يوقفـه عبـث الجهـود نفســه « والعاديات ضبحا بلا ظفر نعود »

تعاودنا صورة التداخل النصي في « أولاد الحلال »

يا ويحنا لما اشتعلت عين سيدنا
مرة
زجرنا بعصا موسى
يا أولاد الكلاب دسوها في التراب

وعصا موسى الوارد خبرها في النص القرآني وذات المرجعية الخوارقية القادرة على ايتاء العجب العجـاب يمتص الشاعر خصوصياتها ليصفيها على عصا الشيخ ضامنة الصراط المستقيم .

ولعل أحلى مظاهر التضمين ـ أؤكد على اعتباره شكلا بدائيا للتناص ـ برزت لنا في التواصل المفضوح بين نص « حديث الفتى ـ وتجربة الجماعة الواردة في حدث أبو هريرة قال للمسعدي

حديث الفتى

حديث أمه قالت

هو كأخوته ... غير أنه

قليل الطعام

كثير السؤال

أليف سريع العدو

ويلاعب العقرب والحية

فالفتى المتحدث عنه في قصيدة « حديث الفتى » يحمل في ذاته عناصر التميز عن الأخوين وهي نفس خصائص ومواصفات بطل المسعدي وهي التي أهلته للخروج ، وبداية الرحلة الوجودية فالخصائص السلوكية التي تبقى نصية في آخر الأمر تحيلنا الى أبي هريرة وتميزه عن البقية كان كثير السؤال وكان ساعة يحضر سباقا للخيل رفقة أقرانه لا ينتظر الفائز مثلهم بل يحلق بخياله مطرقا في الحالة النفسية التي يكون عليها هذا الفائز . ومن ثمة فالتناص متحقق في مستوى بناء الشخصية الرئيسية تلك العنصر النصي . لكن التداخل يتجاوز حدود بناء الشخصية الى حيز بناء الحدث . ففي آخر تجربة العدد رأينا البطل يعود جارا أذيال الخيبة مغبرا وهاهو الفتى يعود كما عاد أبو هريرة :

على مشارف الحيّ

لاح الفتى

فطار كل الحيّ

نحو الفتى

باليا .. أغبر كان

هلّ الفتى ... عاد الفتى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقبل أن نخلص إلى عنصر المحاورة نشير إلى أن سوف عبيد اعتبارا لأسبقية نص المسعدي على نصه قد حول ما كتب إلى الشّعر وهو ما يسميه توفيق الزيدي بالتحول الموجب .

2 ـ المحاورة :

إن تتداخل النصوص وفق قانون المحاورة هو إعادة انتاج الموجود وفق معطيات موضوعية مستحدثة كابستيمية الآن والمكان أو إعادة قراءة المدونة استنادا لمقولات عصرية أو تكيف النص السابق لمقتضيات النص الحاضر ففي قصيدة " عيون " يتسربل القرآن معطى غائبا يفعل في خطاب الشاعر عبر الآية " والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها .... " هذه المؤشرات الطبيعية المحيلة على قوة الخالق والتي كذبتها ثمود تستحيل كائنات يتمنى الشاعر أن يصير إليها ليس لاقناع ثمود بل ليسكن عيني عمياء تستدل طريقها بعصا بيضاء ، ان في إعادة انتاج المدلول الآياتي امتصاصا له من سياقه البرهاني إلى مصاف تعامل انساني فيه دعوة من الشاعر للإحساس بالمعاق .

ذات العصا البيضاء

ليتني كنت الشمس

وضحاها
والقمر إذا تلاها
في عينيها

هذا المثال نردفه بآخر حيث مثلت قصة أصحاب الفيل في القرآن واعتزامهم تهديم مكة وما انهمر على رؤوسهم من حجارة سجيلية ردتهم على أعقابهم . هذه الطيور السبحانية تصبح في " زمن الأزمنة " زمرا للصهاينة رماة الأطفال بالحجارة . فالمفعول في القرآن هم الكفرة يصبحون فاعلين وقد أصاب الشاعر في مساوقة التاريخ ، ثم هؤلاء الكفرة رموا حجارة إلا أنهم الآن يرمون الطفل الفلسطيني قنابلا .

انه زمن
طيوره من أبابل
ترمي الأطفال
بالقنابل

في نفس المضمار فالشاعر اتخذ من المغايرة واختلاف زاوية القراءة ديدنا ركبه وهو يحاور كتب السير والتراجم فقصة حاتم الطائي المنصعة تتنزل راهنا ويصير الطائي طاغيا ويتنزل الكرم تلاعبا بأموال المجموعة وتغدو الخزينة الطائية مصدر أطماع الحاشية والقوى الاستعمارية كما ينتصب حاتم الداعية إلى التكافل الإجتماعي وايثار الغير عن النفس إلى حاكم يبيح لنفسه ما يحرمه على القاعدة ويسعى لتجذيره بإشاعة ايديولوجية متضادة مع سلوكه تضليلا لهم عبر البرامج المدرسية والقنوات البوقية العديدة .

حاتم الطاغي
وهب بيت المال للمداحين
ولتجار السلاح
فباعوه الصديد
ثم أشاع في المدارس
كتاب البخلاء

إن التعامل الديالوغي مع النصوص والأدوات الثقافية المتوفرة للشاعر لها تجليات عدة اكتفينا بما سلف لنصل إلى تقويم محاولته في توظيف المخزون المعرفي المنصوص في انتاج"صديد الروح"

1 ـ إن سوف عبيد أكد مرة أخرى ما ذهب إليه نرثروب فراي من أن ما من انتاج ابداعي يخلق من عدم فكل قصيدة هي وليدة قصائد أخرى والقانون ينسحب على مختلف الأشكال الابداعية فالتناصية قدر كل نص .

2 ـ ان سوف عبيد برهن على تملكه مخزونا معرفيا هائلا مكنه من جعل نصه ضامرا وأكد أن الموهبة لا تصنع شاعرا .

3 ـ اننا مع الاقرار بايجابية ما ذكر نقف عند اختلال التوازن في مستوى تداخل نصه مع النصوص الغائبة فالقراءة رسخت عندي طغيان النص القرآني على بقية النصوص مما يجعلني

أجزم أن المرجع طغى على النصّ وعلى صاحبه أيضا بحكم المساحة الضخمة التي احتلها المقدس في منطقة متوارية من ذات الشاعر .

4 ـ ان النص الغائب اجمالا كان نصا كلاسيكيا وذاك يعني أننا من حيث تاريخ الابداعات المتناثرة شظايا في النص الاصل توجد في منطقة سالفة مما يدفعنا الى الاقرار بأن الحاضر الابداعي تذاوب في الماضي منه مما يوحي بأن الشاعر كثير الارتياح الى المنتوج الفكري السالف أكثر من ارتكانه الى الحديث منه كما أنّ ذلك ينبئ بأن سوف عبيد ينخرط في اطار الدعوة الى اعادة توظيف النص التراثي باعتباره طاقة متجددة مبدعة .

5 ـ ان التفاعل النصوصي بشكليه لم يعدم نقائص . فالشاعر ضمن مقاطع نصية لم تعمق المعنى بما يجعل المتقبل يجهد من أجل انقشاع مدا ليله المبؤورة ، بل لم تزده إلاّ برودا حيث وردت في تصورنا على هامش النص وليست من صميمه مما جعلها خالية من كل فاعلية

« النقطة »

نقطة الباب سوداء
في غياهب الحب
يا يوسف
نقطة النون سوداء
في بطن الحوت
يا يونس
نقطة الحبيبة
نار في رسالتها على حبيبها
السجين

فما الذي يضيفه المبتلي ببطن الحوت ـ يونس ـ ويوسف المجبوب الى تعطش الحبيبة الجامحة لخروج حبيبها من السجن عدا تلاقيه معهما في الحصار ؟

6 ـ ان النص الغائب نص منغلق على ذاته لم يثر بتجارب الامم الاخرى ذاك ما يجعني أتساءل عن حدود حداثة الخطاب اذا اعتبرنا الحداثة دخولا لروح العصر وانفجار معرفي تتفاعل فيه الأنا مع الآخر.

وآخر ما نختم به هو أن كل ما أوردناه يتناول جانبا من المجموعة تلك التي يتجاوز ثراؤها ما ذكرنا بأشواط .

المراجع

1 ـ ابراهيم رمّاني : النص الغائب في الشعر العربي الحديث : مجلة الوحدة عدد 49 ـ 1988 ص 53

2 ـ رولان بارت .. نظرية النص : العرب والفكر العالمي . التناص / التأويل 1988 عدد 3 ترجمة نخلة فريفر .

3 ـ من مداخلة ألقاها الأستاذ محمد الخبوطي لقاء فكري خصص للسياب ضمن نشاطات جمعية الدراسات الادبية بصفاقس ماي 1990 : الايقاع في أنشودة المطر .

4 ـ بول ريكور : ماهو النصّ ؟ : العرب والفكر العالمي عدد 3 سنة 1988

5 ـ الادبية من خلال العمدة لابن رشيق : حمادي المسعودي : الحياة الثقافية عدد 51 ـ 1989

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مظاهر التجريب عند ابراهيم الدرغوثي

« رجل محترم جدّا » نموذجا

بقلم : عمر حفيظ

لماذا التجريب ؟

ـ يرتبط الابداع بالتجريب ارتباطا وثيقا ، فصلات القربى بينهما قديمة تخبر عن تلازمهما وتقاطعهما في وظيفة النفي ، على الأقل ، فإذا كان الابداع نفيا للعدم في معنييه المادي والرمزي وتأسيسا بقيم الجمال في الحياة ، فإن التجريب نفي للنموذج الثابت وارتياد لاماكن غير مألوفة وسير في سبل غير مسلوكة من قبل .

ـ ان التجريب ينزع بالمبدع الى الخروج عن النمطية ، ويدعوه الى البوح بما هو انساني حميم فينا ، انه ممارسة الوعي الضدّي ، وتفكير خارج الوثنية مهما كان مصدرها وشكلها ، انه بلغة المسرحيين : خروج عن النصّ ، ومغامرة تقلق وتدعو الى السؤال أكثر من أنّها تريح وتطمئن .

ـ وفي الحكي بصفة عامة ، فإن التجريب ـ وإن لم يكن يؤسس لتقنيات جديدة ـ يوظّف المألوفة بما يخالف انتظار المتلقي فيسهم بذلك في إنشاء بلاغة وذائقة جديدتين ويمهّد لتأسيس جمالية جديدة في التلقي .

ولأن التجريب يلغي النموذج فنحن أيضا سنتنكب عن التمسك المتزمت بمنهج نقديّ بعينه لأن مثل هذا التطبيق سيكشف عن خصائص جمالية في النصّ المدروس ، ما في ذلك شكّ ولكنه قد يغفل عن خصائص أخرى تميّز هذا النصّ أو ذاك عن غيره ، فيموت النصّ الابداعي ، ولا يختبر النقد نفسه ، هذا فضلا عن حقيقة أخرى وهي أن المناهج النقدية ذاتها لم تكن إلاّ حصيلة نظر في نصوص ابداعية . وان هذه القراءة لا تدّعي الشمول أو العصمة ، ولكنها تروم أن تكشف عن مظاهر الابداع والجمال والجرأة والانزياح في نصّ ابراهيم الدرغوثي .

مظاهرالتجريب/ التصدير :

صدّر الدرغوثي مجموعته القصصية بعبارة للنّفزي (1) من المواقف والمخاطبات :

كلّما اتسعت الرؤية ... ضاقت العبارة .

فما علاقة هذه العبارة بالنصوص الواردة في المجموعة القصصية عامة ؟ وبنصّ « رجل محترم جداً » خاصة ؟

ان عبارة النّفري مندرجة في سياق صوفي معجما وسلوكا ورؤيا ويفهم من منطوقها أن تقابلا في الأفعال والمكان والزمان ، يقوم بين عالم الصوفي وعالم الآخرين :

اتسعت = ضاقت

الرؤية = العبارة

السّماء = الأرض

زمن نفسي عمودي صاعد = زمن خارجي / موضوعي (2)

والرؤية المقصودة مجالها السماء وآلتها القلب وعاء للمعرفة بعد أن يجلى ويصقل بالمجاهدة لتتم المكاشفة ويكون التجلي تمهيدا للمشاهدة وهي مرحلة يضيق عنهـا « نطـاق النطـق » و « درجة من القربى » كما يقول الغزالي .

لكن لم تضيق العبارة ؟

ان العبارة أرضية ، فأنّى لها أن تحيط بما في الذات ، أليس ثمة في الكون ما تدركه المعرفة ولا تحيط به الصفة ؟ !

أليس الصمت أو الحذف أحيانا كلاما ؟ !

أليس ثمة ظاهر وباطن وجوهر وعرض ؟ !

ان نصوص الدرغوثي ، في مجموعته القصصية ، لها ظاهر وباطن ، تقول ولا تقول ، ذلولة مطواعة ، عارية ولكنها عصية متمنعة تحرّض على التأويل ، انها تربك قارئها وتدعوه الى الاستعاضة عن العبارة بالرؤيا ، ان غاية السرد ، عند الدرغوثي ، اثارة السؤال والحث على الشك والالتفاف الى المهمّش والتفكير في المسكوت عنه .

مظاهر التجريب / المكان : أو زعزعة ذاكرة المتلقي المكانية

ان وصف الأمكنة ، أو تسميتها ، فيهما ايهام بالواقعية : بوقوع الأحداث أو امكان وقوعها على الأقل ، فضلا عمّا تنطق به الأمكنة من دلالات اذ هي ليست محايدة حتى في السرد الذّي ينزع فيه أصحابه منزعا ذهنيا فيكتفون باشارات خاطفة للمكان ، فالأحداث في احيان كثيرة منبثة عن أماكنها والامكنة داعية للفعل .

واننا نريد أن نهتم بمكانين اثنين فقط في هذه الأقصوصة هما : ساحـة « البـاسـاج » و « سيدي عبد الله قش » رغم اشارة السارد / البطل الى أماكن أخرى بصورة مباشرة أحيانا عن طريق تسميتها أو بصورة غير مباشرة عن طريق الاحالة عليها من خلال أسماء للعاقل :

1 ـ الاماكن التي سماها مباشرة كثيرة ، منها : زرقون ، اسرائيل ، السويد ، المسجد ، صوفيا ، تيرانا ، نزل أفريكا ، سان بطرس بورغ ...

2 ـ الاماكن التي أحال عليها من خلال أسماء للعاقل :

هوشي منه ـــــــــــــــــ الفيتنام

كاسترو ـــــــــــــــــ كوبا

غيفارا ـــــــــــــــــ كوبلا ـ بوليفيا / أمريكا اللاتينية

لينين ـــــــــــــــــ الاتحاد السوفياتي سابقا

* وإننا اخترنا هذين المكانين دون غيرهما لما بينهما من ترابط فـي الماضـي فـي السرد « فالباساج » هي الساحة التي انطلقت منها المظاهرة منذ عشرين سنة عندما كان السارد

طالبا في الجامعة ، يهتف بسقوط أمريكا والامبريالية العالمية ، و « سيدي عبد الله قش » هو المخبأ الذي لاذ به وكلاب البوليس تطارده ، ثمّ عاد اليه ثانية وثالثة ثمّ رابعة بعد عشرين سنة وهو رجل محترم جداً .

1 ـ **الباساج** : (اسم مذكر في اللغة الفرنسية) : ان هذا الاسم له معان متعددة منها الارتقاء من مرتبة إلى أخرى والعبور ومنها كذلك التحول من حالة الى أخرى .

ان هذا المكان ، هو الأوّل ، في الترتيب الزماني / المكاني الخطّي ، فهو الذي انطلقت منه المظاهرة / الحدث المؤسس للسرد في قصة الماضي ، واننا نزعم ان هذا الانطلاق الفعلي من ساحة « الباساج » (العبور) كان يوازيه انطلاق متخيل يحلم به السارد ، وهو بداية العبور من عالم الامبريالية وأمريكا الى عالم « هوشي منه » و « قيفار » و « فيدال كاسترو » .

ولكن المظاهرة تموت عندما تصل الى شارع فرنسا « وعندما وصلنا الى شارع فرنسا فرّقنا البوليس » ـ ص 20 . ويهرب السارد / البطل في اتجاه نهج زرقون (لم يكن هذا المكان إلاّ معبرا في الماضي والحاضر ، فهو لم يقصد لذاته) . ثمّ يدخل سيدي عبد الله قش .

2 ـ **سيدي عبد الله قش** : هو شارع البغايا في العاصمة / جزء من المدينة العتيقة جزء من الذاكرة :

ـ « وأهرب فتصد مني روائح البخور والندّ والحنّة وعود القماري من هناك ، من شارع سيدي عبد الله قش ، عشرون سنة على آخر زيارة لي لهذا الشارع » ـ ص : 10 / 11 .

ان استعمال صيغة : سيدي عبد الله قش ، فيه اصرار على تقديس المكان ، مكان الخطيئة صار مقدسا ؟ !

ألم يكن هذا المكان هو مهرب السارد من كلاب البوليس : « وصلت الكلاب فلم تجد سوى الأبواب المغلقة . نجت كثيرا وبالت على الحيطان .... وجدتني في شارع سيدي عبد الله قش » ص : 21

ألم يصبح هذا المكان بعد ذلك فضاء ، يتحدث فيه السارد عن الثورة : « وتذكرت الأيام التي كنت أحكي لها فيها عن ثوار « الفيت كونغ » و « طلاب باريس » و « الثورة الثقافية في الصين » ـ ص : 23 .

أليس من حقّ السارد أن يقدّس هذا المكان ؟ وأن يعود اليه بعد عشرين سنة ؟

ان هذا المكان في الذاكرة الجماعية الرسمية ، مدنّس لأنه مكان الخطيئة ، يحتضن فاعليها ، ويدعو الى فعلها ، ولئن كان المجتمع بسلطاته المختلفة والمتصارعة / المتعايشة (السلطة الدينية ـ السياسية ـ الثقافية ...) يعزل هذا المكان ويحاصره ويهمشه ، رغم ما يقوم به من دور في تكييف الطاقات الغاضبة والمتمردة والرافضة ، فان السارد قد أتاح لهذا المكان أن ينطق بما هو سرّي ، حتّى أنه لم يعد ثمّة سرّ ، فالسارد قد صار يفكر بصوت عال ويتنكّب عن الهمس : « خجلت كثيرا من نفسي ، ماذا سيقول عنك الرّفاق يا رجل لو رأوك تخرج من عند تلك المرأة » ـ ص 21 / 22 .

ولكن هذا الخجل لم يكن إلاّ حالة عارضة ، فقد عاد السارد الى المرأة : « وتعطل عقلي ...

ورميت بما جاء في الكتب في البالوصة وهمت بها وجدا » ص 29 .

ان وظيفة هذا المكان قد تحولت من وظيفة احتواء الأحداث وتأطيرها الى أخرى أخطر منها ، فيما نرى ان هذا المكان قد غدا مرآة (وظيفة المرآة) يرى فيها السارد نفسه فيحاسبها : « قالت : عشرون سنة ونحن نرقب اليوم الذي وعدتنا فيه بتحرير أجسادنا من منّي الرجال السكارى والمرضى والمنبوذين »

ـ « بلعت السكين وسكت » ص 28

ان الضمير سيتحول من ضمير الجماعة (نحن نرقب ... وعدتنا ... أجسادنا) الى ضمير المفرد وأفقت ذات يوم وهي تطلب مني أن أفي بوعدي وأحررها من منّي الرجال ، قلت : كيف ؟ ردت : تزوجني .

ان هذه المرأة قد وضعت السارد في موضع حرج ، فهل كان يقبل أن يتزوجها ؟ وهل كان يقوى على ذلك ويقدر على الدفاع عن نفسه وعنها ؟ .

انه العجز ، في بعديه الذاتي والموضوعي بالنسبة الى السارد ، فلا ثورة تحققت ولا بغايا تحررن : « قالت : أما زلت تؤمن باغلاق دور البغاء وتشغيل العاملات فيها في المصانع والمعامل التي ستحدثها الثورة ؟ » .

قلت : « لقد أفسدتني السياسة يا صالحة » ص 28 .

ان السارد يعلن بصوت عال « هزيمته » ! ولكن أي هزيمة ، وهل هي هزيمة حقا ؟

أليست الأحداث والأشياء والمفاهيم نسبية متحولة متغيرة ؟ ثمّ أليس الواقع شديد الوطأة فاتكا هاتكا .

ان معاني الفتك والهتك في لسان العرب تدور على : الجرأة والجهر والخرق والفضح وقد كان السارد / ابراهيم الدرغوثي فاتكا هاتكا رغم أنه خسر الثورة وصار « فاسدا » من جرائر السياسة . وأول مظاهر الفتك والهتك ، ترتيب الأقاصيص داخل المجموعة ، فقد كان ممكنا لابراهيم الدرغوثي أن يدسّ « رجل محترم جداً » بين بقية الأقاصيص داخل المجموعة ، لطفا بوعي قارئ عادي ما زال يرى الأدب خطابا أخلاقيا ويقصر وظيفته على التنفير من الشرّ والحثّ على الخير ، ولكنه تنكّب عن ذلك واختار أن يخالف توقعات القارئ وأن يقلقل ذاكرته المكانية ويزعزعها ، إن إحساس السارد بالمكان ووعيه به موصولا بوعيه بذاته ومنزلته في الوجود بأسره ، إنه وهو يعود الى هذا المكان ، يعود الى الماضي الذي لم تقدر على محوه من الذاكرة عشرون سنة بما فيها من تسيير ادارة وارتقاء في المسؤوليات .

ان هذا المكان قد غدا مرجعا يحاسب السارد فيه ومن خلاله نفسه ، بل لعله يحاسب جيلا كاملا ظلّ ينتظر الثورة برومنسية حالمة فذهل في أحيان كثيرة عن امكانات « الأنا الثائرة » الذاتية وعن اكراهات الواقع فخابت آماله ، ولكن الخيبة لم تلغ الحلم ولم تنفه تماما ـ و هي لا تقدر على ذلك اطلاقا ـ فالعودة الى المكان بما يختزنه من ذكريات فيها تأكيد على أن الحلم بالثورة مستمر ومشروع : « ملأت صالحة كأسي وكأسها وضربنا الكأسين ببعضهما . قالت وهي تضحك : في صحة ثوار لفيت كونغ . قلت : في صحة طلاب باريس ص : 31

وفيها كذلك ـ أي العودة ـ احتجاج على « زمان تدمع له العين حزنا وأسى ويتقطع له القلب غيظا وجوى » كما يقول التوحيدي .

وثاني مظاهر الفتك والهتك أن هذا المكان لم يعد مثيرا أو داعيا الى فعل الخطيئة أو مهمشا لا يستقطب إلا المنبوذين والسكارى والمرضى فقط بل غدا مسموعا يسرد التاريخ السرّي لفئة اجتماعية تضطهد وتمتحن وتبتذل (بضم التاء والفتح) لتوفر المتعة واللذة ولكن الذاكرة الجماعية تتنكر لها والتدوين الرسمي يسكت عنها وعن عذاباتها متعمدا ، أما السارد فقد احتجّ لها وأتاح لها أن ترفع صوتها عاليا : « أنا لا أحتمل ركوب امرأة قتيلة ! كيف استطيع تقدير ثمن المتعة التي تبيعها وهي تموت ألف مرة مع كلّ هزّة من السرير ! » ص : 27 .

لقد صار المكان يستقطب حتّى الرّجال المحترمين جداً ، ويدفعهم الى الاعتراف بما في نواتهم بل انه يكشف عن هيئاتهم وصورهم الجديدة : « أمام الادارة تستقبلني الابتسامات الكاذبة ويقف عند مروري العمال والموظفون ويبوس رؤساء الأقسام أرجلي » ص : 23 .

ان السارد كائن من كلام ، ما في ذلك شكّ ، ولكن صورته بصيغة الجمع لرجل (أرجلي : صيغة جمع) تنأى به عن عالم الانسان الى عالم السوائم ونوات الأربع بصفة عامة ، وماكان لهذه الصورة الجديدة أن تظهر ، وما كان للسارد أن يتحدث عن نفسه لو لم يذهب الى « سيدي عبد الله قش » حيث يتقاطع الماضي والحاضر وتتهاوى الحدود بين المقدّس و المدنّس ، وتجرؤ الذات على القول والاعتراف .

لقد بدا لنا ونحن نقرأ هذا النّص مستحضرين مفهوم التبئير كما يجريد « جيرار جينت » أن السرد ذو تبئير داخلي متنوع ، فقد بدأ مركّزا على السارد في ماضيه وحاضره ثمّ انتقل الى « صالحة » ثمّ جمع بينهما في آخر الأقصوصة . أما الشخصيات الأخرى (البائع ، الطفل ، ميمي ، سي علي ، سي عمار ، خديجة ، فاطمة ، ....) فانها مسطحة / ثانوية لأنها لا تسمع إلاّ من خلال صوت السارد ، هذا الصوت الذي تلاعب بنا واجبرنا على تتبع مساره فيما أجرى من تقديم وتأخير وحذف وفيما مارس من تركيز على المكان حتّى بدا لنا أن المكان « سيدي عبد الله قش » هو أيضا سارد يروى تفاصيل صغيرة وحميمة هي نسيج الأقصوصة منها قدّت فجاء ت حاملة لقيم شعورية تنبئ عن وعي شقي بالواقع لم يفصح عنه السرد مباشرة ولكن التأويل يخبر بذلك .

مظاهر التجريب / الزمان :

ان الوضع الزمني للسارد يكشف لنا أن السرد في النصّ سردان :

1 ـ سرد تابع يروي أحداثا ماضية بصيغة الماضي .

2 ـ سرد آني ، في صيغة الحاضر وتتزامن فيه الأحداث والسرد .

ويتداخل هذان النوعان من السرد في النصّ ، حتى يستحيل الزمن في يد السارد خيطا تتعقد منه أشكال مختلفة دائرية مرّة وخطيّة مرّة أخرى ، ومتكسرة في بعض الأحيان ، فالسرد يبدأ بزمن الحاضر « مضى الآن أكثر من عشرين سنة على آخر زيارة لي لهذا الشارع . أنا الآن في الأربعين » ـ ص : 7 .

وينتهي بزمن الحاضر كذلك : « تحلّقوا يتفرّجون على المرأة الكهلة التي ترقص على نغمات دف

يضربه رجل محترم جدًا ! ! ! ـ ص : 31 .

وبين البداية والنهاية (شكل دائري) يستوي السرد في أشكاله الزمانية الأخرى المختلفة واننا سنوظف معيار الزمن : الماضي والحاضر في تقطيع نصّ « رجل محترم جدًا » لنكشف عن مظاهر اللعب بالزمن والتجريب فيه .

تقطيع النص : الحاضر / الماضي :

الحاضر:

1 ـ « مضى الآن ... من بعد الفراق هناني »
ص : 7 ..... ص : 11

3 ـ « ماذا جاء بي الى هنا وأنا رجل محترم جدًا »
ص : 12

5 ـ « روّح يا ولد الـ ... فأراها »
ص : 14 ... ص : 15

7 ـ « وانظر الى المرأة ... ويمشي معي الطريق »
ص : 15 ... ص : 17

9 ـ « وأعود ... وتهدهدني البنت »
ص : 18 ... ص : 19

11 ـ « أين للا صالحة ... فيه »
ص : 22 ... ص : 26

13 ـ « قالت ... سكت »
ص : 27 ... ص : 28

15 ـ « وهاهي ... الحريرية »
ص : 28

17 ـ « عادت ... جدًا جدًا ! ! ! »
ص : 31

الماضي :

2 ـ « فأتذكر ... ما لا لا »
ص : 11 .... ص : 12

4 ـ « روّح يا ولد الـ .. أفريكا »
ص : 12 .... ص : 14

6 ـ « ويندفع ... ها صالحة »
ص : 15

8 ـ « لم أكن وقتها ... الرجال السمان »
ص : 17 ... ص : 18

10 ـ « أمرغ وجهي ... مبيت الجامعة »
ص : 19 ... ص : 22

12 ـ « كانت قد مرّت ... السرير »
ص : 26 ... ص : 27

14 ـ « تذكرت ... صالحة »
ص : 28

16 ـ « بعد أن أعطيتها الوردة ... جديدة »
ص : 29 .. ص : 30

لسنا في حاجة الى التأكيد على أن ترتيب الأحداث في المتن الحكائي مخالف لترتيبها في المبنى :

الماضي البعيد / قبل عشرين سنة /

الحاضر المتن

تنطلق المظاهرة من ساحة الباساج

السارد يدخل هذا الشارع ...

الحاضر : الآن : بعد عشرين سنة

الماضي في الحاضر المبني .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السارد يدخل هذا الشارع من جديد يتذكر

والحافز على التذكر ، في رأينا ، هو المكان فكلّما تعلق السرد بالماضي ويفعل التذكّر (أتذكّر / تذكرت) ، ظهرت في النّص ظروف مكان واسماء اشارة تلغي المسافة الفاصلة بين الماضي البعيد والحاضر ، وتؤسس لانسراب الماضي وقيامه الآن وهنا : فأذكر ... هذا الشارع

هذا بابها

ها هنا كانت ترقص .

ـ ص : 11 / 12

ـ تعال هنا أيها الهارب ! قالت .

جريت نحوها وأغلقت ورائي الباب . ـ ص : 21

ـ تذكرت ... قالت : تعال الى هنا ولا تدفع الدراهم . ـ ص : 27

ـ تذكرت الأيام التي كنت أحكي لها فيها عن ثوار الفيت كونغ . ـ ص : 29

ـ تعال الي هنا عندما تصير رجلا يا صاحبي . ـ ص : 29

ـ قالت : متى

قلت : عندما يتحرر الرجال

قالت : ومتى سيتحرر الرجال غدا أو بعد غد . ! ـ ص : 29

وان انسراب الماضي في الحاضر وهيمنته عليه سيؤثر بالضرورة في توجيه القراءة وفي ما سيؤسسه القارئ لنفسه من مواقف من الأحداث والمكان والزمان ، لقد تحوّل الماضي المهيمن الى مرجع يؤثث حياة السارد الذي يرى حاضره مقيما جديرا فيحتج عليه ، لكن بهدوء من وعى أن طرائق الاحتجاج مختلفة وأن بعضها عن بعض يفرق ، فالصراخ قد يقلق ولكنه يجني على صاحبه ، أما السخرية فانها تساهم في تأصيل الوعي ، فضلا عن أنها تطرد عن النفس القهر والصدأ والعفن : وأنا رجل محترم جداً ، لقد تواترت هذه الجملة الساخرة أربع عشرة مرّة ، وان تواترها هذا قصدي يرشّحها للقيام بدور اعلاني اشهاري / تشهيري للأنا السارد أو به ، ولعل التّشهير هو الأنسب لأن التباين / التقابل بين المكان (سيدي عبد الله قش) والسارد (رجل محترم جداً) هو الذي انتج دلالة التّشهير بالسارد والزمن معا ، فجاء النصّ يرشح بالسخرية من أوّل سطر فيه الى آخره ويمارس التعرية ويقول مالا تقوى على قوله نوات كثيرة امتهنت النفاق والمغالطة وتزيت بالكبرياء الكاذبة .

لقد خلا السرد من أي اشارة تاريخية صريحة في نصّ « رجل محترم جداً » ولكنه أومأ الى أن الأحداث قد جرت في أواخر الستينات : روجرس / الفيت كونغ / جونسن / فك الارتباط عن قتال السويس / ... ، في تلك الفترة الحبلى بالاحتمالات والداعية الى التفاؤل بأمل الخلاص والتحرر ، تخلقت للسارد رؤيا لم يستطع أن يتخلص منها ، فالماضي برموزه قد ظل ثابتا في وجدانه وذهنه في حين أن الحاضر رغم أنه يجري الآن وهنا لا يشدّ ، اليه الا بما يكون فيه من فجوات تذكر تنفتح على الماضي :

ـ تزمجر أشرطة الكاسات :

حبيبي يا صحابي جاني من بعد الغياب هناني

فاتذكر :

قالوا زيني عامل حـالا مالا لا !

بهذات قلوب الرجـــالا مالا لا !

فما الذي جعل السارد يتذكر ؟ هل هو التّماس ؟ هل ثمة في نص الاغنية الأولى ما يحيل على الثاني ، لعلها الرغبة في التذكر فقط :

ـ ألتفت الى حيث يشير الطفل فأراها

ويندفع الغناء في أذني رخيما كصوت البلابل

شـــارد بهـــواك صالحة

انه الماضي يتعاود ولكنه يتعاود في هيئات جديدة لأن السارد قد صار « محترما جداً » ، انه الآن أكثر وعيا بالماضي وحسرة عليه :

لم أكن وقتها أضـــع ربطـة عنـق

ولا ألـــبس البـــدلات الفـــاخرة

ولا متـــرهّلا

ويطني لم يكن به هذا الكدس الكبير من اللحم والشحم

ص : 17

ان السارد قد تلاعب بالزمن كما شاء ، فربط بين ماضي الشخصيات وحاضرها ليوهم بواقعيتها ولما استبد به الحاضر عاد الى الماضي ، فسرد حكايته هو والمومس ، وتحدّث عن خجله وهربه وضحكها عليه في بعض الأحيان : « تعال الى هنا عندما تصير رجلا يا صاحبي » ـ ص : 29 ، فكان السرد احترافيا قائما على التذكر الذي أتاح له أن يخالف توقعات القارئ ويفاجئه بما قد يولّد له المتعة واللذة أحيانا ويضاعف في نفسه النقمة على حاضر شقي أحيانا أخرى .

مظاهر التجريب / الشخصيات :

ان الشخصية في السرد ليست الاّ كائنا متخيلا ، وان أول ما يلفت انتباه القارئ ، التسمية فهي دالة في أغلب الأحيان لانها قائمة على الاختيار والقصد ، ولذلك فإنّ السؤال عن الأسماء وأفعالها وأقوالها يظل قائما حتى تنتهي القراءة ، أي أن القارئ سيتساءل عن دلالة الأسماء ومدى انتشارها في النص السردي وعن أفعال الشخصيات أهي مطابقة للأسماء أم مناقضة ؟ أم موافقة لتوقعاته أم مخالفة ؟

وقد عدد النقد ثلاثة مصادر اخبارية يمكن أن تحدّد هوية الشخصية :

ـ ما يخبر به الراوي / السارد .

ـ ما تخبر به الشخصيات ذاتها .

ـ ما يستنتجه القارئ من أخبار عن طريق سلوك الشخصيات (3) .

وهذه المصادر كفيلة برسم صورة الشخصية واضحة في ذهن القارئ بما قد يكون لها من

فرادة أو غرابة يرشحانها لأن تكون مرجعا دائما يقيس اليه القارئ نماذج من الشخصيات التي قد تعرض له أثناء قراءاته اللاحقة ، ولأن تحتل حيزا ثابتا في الذهن يودّ معه القارئ المتذوّق المتأني أن تخرج تلك الشخصية / الشخصيات من الورق الى الوجود وأن يتحوّل فعل الكلام الى فعل مادي :

- أبو هريرة في حدّث أبو هريرة قال / المسعدي
- زكرياء المرسنلي في الباطر / حنّامينة
- كرم المجاهدي في الربيع والخريف / .. حنّامينة

وقد اخترنا " السارد وصالحة " لنشتغل عليهما وغايتنا هي الكشف عن دلالتهما وعن كيفيّة تلقّيهما وعن وجوه الطرافة والغرابة فيهما ـ وإن كانت الشخصيات الأخرى كلّها لا تخلو من ترميز ودلالة .

دلالة الشخصيتين :

أ ـ السارد : ليس عسيرا على القارئ ، بعد اتمام القراءة ، أن يعرف أنّ هذا السارد / البطل قد كان طالبا في الجامعة وكان يهتف بسقوط أمريكا والامبريالية عامة ، وأنه أنشأ علاقة مع مومس وهام بها وجدا بعد أن خبّأته من كلاب البوليس وأذاقته " تفاح الجنّة " ، وأنه صار بعد ذلك " رجلا محترما جداً " وعاد إلى المومس يبحث عنها بعد عشرين سنة ، ولكن ثمة سؤال يظل قائما وهو : من هو هذا السارد ؟ .

ان صورته ـ فيما نرى ـ تظل غائمة ، رغم ما اعترف به هو بنفسه وما قالته عنه صالحة ، واننا نزعم أن غياب التسمية فيه تعمية وتعميم في نفس الوقت ، فكأن السارد لا أحد أو هو كل فرد من هذا الجيل الذي أوغل في التفاؤل وارتاد الأقصى في الحلم وذهب بعيدا في التمني ولكنه لم ينل إلاّ الخيبة والأذى لا من جهة الامبريالية ورموزها فقط بل من جهة من يعيشون معه نفس المحنة في اطاريها الزماني والمكاني : " قال عنّي الرّفاق أنّني مرتدّ عندما اكتشفوا تردّدي على شارع البغايا ، ولم ينفعني ادّعائي الجنون " ـ ص 30 ـ . ما الّذي دعا الرّفاق إلى اتهام السّارد بالارتداد ؟

أعلاقته بالمومس ؟ أم ذهابه إلى هذا الشارع بكرّس تلك التجارة ؟ وهل يكفي أن ينقطع السارد عن الذهاب حتّى تتحرر البغايا ؟ ! لقد انقطع السارد عشرين سنة ثم عاد والشارع على حاله يستقطب ما يستقطب من الزبائن بما فيهم من الرجال " المحترمين جداً " .

ان السارد ، في نظرنا ، يظل نكرة ، فالحاضر لا يخبر عنه إلاّ بأنّه " رجل محترم جداً " أو أنه " يتعطّر كالمومس ـ ص : 23 ، وهذا لا يكفي في نظرنا لتحديد صورته أما الماضي فإنه أكثر تفصيلا في الأخبار عنه ، فهو ذلك الطالب الحالم بالثورة ولكن خابت آماله ولم يقدر على احتمال ما عاينه وشهده في الواقع المعيش من أدواء تنخر جسد المجتمع : "

ـ أمام الإدارة تستقبلني الابتسامات الكاذبة .

ـ ويوشوشون في أذني كلاما كثيرا : سمي علي يحكي عن الاضرابات وسمي عمار يدين تدخل أمريكا في بنما ، وسمي عبد الله هرب من الشغل قبل انتهاء الدوام ، وفاطمة تغازل رئيس القسم

الفلاني ، وخديجة تقول أن ثمن كيلو اللحم وارتفع كثيرا ـ ص : 23 .

ان هذه الشواهد تخبر عن تآكل المجتمع من الداخل وعن طبيعة العلاقات القائمة فيه ، فالوشاية والاغتياب (4) والوصولية والأنانية وغيرها من القيم الحقيرة والدنيئة ، تحيا بيننا ، ولا ينكر ذلك إلا جاحد ، أمّا بالنسبة إلى السارد / الطالب الحالم بالثورة ، فلعلّه لم يكن يفكر فيها أو لم يكن يتصور هيمنتها ووطأتها في الواقع لذلك كانت الصدمة عنيفة بالنسبة إليه تبين استفحالها في المجتمع واستبطان أفراده لها ولمثلها من القيم الوضيعة ، فلاذ بالماضي وأعلن انسحابه من الحاضر وقد عبّر عن ذلك رمزيا بالعودة إلى " سيدي عبد الله القش " .

ب ـ صالحة : هي صالحة ، والصالحة (بالألف واللام للتعريف والاستغراق) وللاّ صالحة (صاحبة مقام عال) لكن هل يوافق اسمها توقعات القارئ ؟ وهل يلائم الأفعال التي تأتيها والمكان الذي يأويها ؟ .

لن نقول أن اللغة اعتباطية ، والعلاقة فيها بين الأسماء والمسميات / الأشياء ، محضر صدفة بل أننا سنقول أن السارد قد اختار عن عمد وقصد ، لكن كيف يمكن أن نبرر هذا الاختيار ، ؟ وكيف نخرج من المأزق : صالحة ـــــ مومس .

إن وجوه الصلاح عند هذه الشخصية ، وفي علاقة بالسارد كثيرة منها أنها هي الستر الذي حماه عندما كانت كلاب البوليس تطارده فنجا في حين أن كثيرا من رفاقه الذين اصطادتهم الكلاب لم يعودوا إلى الجامعة ، ومنها أنها كانت أكثر وعيا بواقعها وأكثر تمثلا لتعقيداته ، فقد كانت تنظر إلى الأشياء بعين النسبية ، ثم إنها قد سعت إلى أن تعلّم السارد كيف يرفع عن نفسه الحرج وكيف يحررها في من أسرها ، لكنه لم يقدر على ذلك وسكت عن السرد لما طلبت منه أن يتزوّجها رغم ايمانه بأنها تستحقّ العتق رغم اعترافه بجميلها وفضلها عليه ، لذلك يمكننا أن نقول إن العودة إليها بعد عشرين سنة لم تكن للبحث عن اللّذة والمتعة والحال أن الصالحة ترهّلت وصارت قوّادة ثم أن المتعة متاحة للسارد في أماكن أخرى كالنزل الفاخرة ، لم تكن العودة إلاّ بحثا عن قيم فقدها السارد في حاضره فاحتمى بالماضي الذي تجسده ، رمزيا ، شخصية صالحة .

مظاهر التجريب / اللغة :

لقد تعامل ابراهيم الدرغوثي مع اللغة بأشكال مختلفة ، فقد جاءت التراكيب في أحيان كثيرة اسمية كانت أو فعلية ، بسيطة أو مركبة ، مختزلة قصيرة تجنب فيها صاحبها الطول فظهر النّص شبيها في تفضيته بالقصيدة ، ولكننا لا نعدم الجمل الطويلة القائمة على الاطناب في مقاطع كثيرة من النّص (الصفحات : 9/8/7) ، ولابدّ أن نشير كذلك إلى أن ابراهيم الدرغوثي قد راوح الفصحى والدارجة : بين فصحى المتنبي والشيخ النفزاوي وفصحاه هو ودارجة " السيدة علية " و " صليحة " ، فبدا النّص جريئا ومغامرا ، يلتقط اليومي ويحوله إلى مادة للسّرد بل إنه يستدعي " العادي " و " ما لا يليق " و " المهمّش " ليبني عالما عجيبا غايته تعليم الجرأة والبوح ونفي النظر الرومنسي إلى الواقع والخروج من أحلام اليقظة إلى

جحيـم الحيـــاة .

خـــاتمة :

إننا نعرف جيدا حدود هذه المحاولة المتواضعة ، ولكننا أردنا فقط ، أن نساهم في جرّ الكلام / القراءة / النقد إلى مناطق ، في الواقع وعلى الورق ، هي في نظـــر البعض ممنوعـــة أو محرمة تمارس خوفها على عقول كثيرة تدّعي الثقافة . إن هذه المناطق لابدّ لها أن تتكلم وأن تنطق بما هو شريّ فيها ومحجوز لكنه فاعل ومؤثّر في حياتنا مهما تجاهلناه وأخذتنا العزّة والكبرياء ، وحتّى لا تكون ذاكراتنا عرجاء تبحث عـن بعض أجزائها فيـما يبدعـه الآخر ، وحتّى لا يمكننا الخوف الدائم مـن الكلام ، فإنه لابـدّ لنـا أن نؤسس علاقـة جديدة مع ذواتنـا ومع اللغـة والعـالم بأسـره ، ولعـل ابراهيـم الدرغوثي ، وغيره قليل ، يبشّر بذلـك .

*** الهوامش :**

1 ـ النّفري : هو أبو عبد الله محمد ، متصوف عراقي ، عاش في القرن الرابع الهجري وقد سمّى النّفري نسبة إلى نَفر بالكوفة .

2 ـ محمود أمين العالم : مفهوم الزمن في الفكر العربي الإسلامي قديما وحديثا . ضمن كتاب دراسات في الإسلام . الطبعة الرابعة دار الفرابي 1937 .

3 ـ الصيد لصيباني : بنية النّص السّردي ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى 1991 ، ص : 51 .

4 ـ راجع مادة غيب ، في لسان العرب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنّ ما أعرفـه فقط هو أنّ الرواية لم تعد تستطيع الحياة فـي سلام مع عصرنا ، إذا كانت ما تزال تريد الإستمرار في اكتشاف مالم يكتشف ، إذا كانت ما تزال تريد أن تتقدّم بوصفها رواية ، فإنّها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلاّ ضدّ تقدّم العالم . ميـلان كونديرا (فـنّ الـرّوايـة)

بـــدار الســينما والمســرح ابن رشيق
الرسامة الشابة ريم العياري

* رسالة الإحتجاج السابعة .. على الذات *

بقلم : منيـــر بـــن يونس

*** قبل البدء :**

عندما تفقد الأحلام .. نبضها ، ويسلخ الجسد المنهار .. أمام عذابات تخور بحملها القوافل ... هل يكون لنا في الجنوح .. بعيدا عن موطئ قدم الخيول الراكضه فوق السنابل .. أفقا للأمل ؟ هل نتعرى .. من جلدنا إذا ما ضاقت بنا سبل النجاة ؟ ... أو الوصول لضفاف الأمان بكل مفاهيمه الروحية ... هي لغة أخرى للإغتصاب بلا عنوان ... وافتضاض بكرة الروح المعلقة بين الأرض والسماء في " الحملة الدامية " .. هل هو الضياع والإنهيار على عتبات الخطيئة ؟ .. تتزاحم الأسئلة داخل العمل الواحد لتستقر بأذهاننا كلّ صور الإنهزامية أمام هذا الوجود تستنزفها ريشة شابة حرقة . لهيبا / بالسما لمن صلبت أحلامهم على بوابات الزمن العاري

...

هكذا كنّا نتصفّح بأعيننا كلّ نقوس الإختناق الوجودي ... من حيرة وقلق ... إلى تشتّت الروح وتمزيق الجسد .. هي " اللعنة " و " التمرد " التين طبعت بهما ريم العياري معرضها السابع أو بلغة أصح رسالة الإحتجاج السابعة .. على الذات ؟ !!! فكان الجسد المنهار شظايا .. في فضاء قاتم غير عابئ بدماء التي تحاصره .. فتتعدّد الرأى في فضاء واحد وتتلاحق الهواجس .. هل يمكن لإبتسامة ريم أن تلغي ما سكبته خوالجها الإبداعية على ملإ فضاء ابن رشيق ؟ ربما !! لو ابتسامة الحلاج ، لليلة الفاجعة أقنعتنا أنها ابتهاجا بما يجري .

28 لوحة اختلط فيها الوعي بالجنون ... الحلم باليقظة ... اللهاة بالمأساة .. الكهولة بالشباب .. رحلة سريالية داخل عالم مجنون ... أرادتها ريم العياري مدخلا لخوالج الذات ... وبحثا عن فضاء أكثر اتساعا / ضبابية .. لإيصال ما لا يصل .. عن درب " منير " بالفواجع .. بدم التّفاح .. بالحلم الميت قبل الولادة ... في الذات إذا حين تجنّح بها الجراح .. في سماء تمطر دماءً .. عرقا .. خوفا من الأمس .. واليوم .. والغد .. وما بعد الغد ؟؟؟! ..

* يقول الناقد السوفياتي بالينسكي (Belinszkij) « إنّ الفنّان يأتي إلى العمل الفني مارا بقلبه ليفرغ شحنته التي تتصهر في أحاسيسه ، حيث يتم تشكيل العمل الفني أخيرا » . وما جاءت به الرسامة ريم العيّاري في " رسالتها " الأخيرة بفضاء ابن رشيق لا تخرج عن هذا الإطار داخل أعمال حملت شحنة من الأحاسيس والخوالج تجاه الحياة والواقع برأيه تستحق الدرس والتحقيق .

فرغم محدودية سنها ـ خمسة وعشرين عاما ـ حقّقت حضورها المتميز وأثبتت في هذا المعرض

أنها من الرّسامات اللواتي ينتظر منهنّ الكثير في المستقبل القريب .

ما يجلب الانتباه في لوحات ريم هذا الحضور المكثف لمظاهر الإنهيار والضياع والتشتّت في ما يزيد عن عشرين لوحة من بين الثمانية والعشرين المعروضة وتعطي عناوين بعض هذه اللوحات لمحة عن هذه المظاهر (لعنة ، تمرد ، ضياع ، الغريب ، الحملة الدامية ، تمزّق ، العاصفة ، الخطيئة ، الغريق ، الخ ...) . وحتى محاولات التملص من هذه المظاهر في جزء آخ



من لوحاتها لم ترتقي لإيصال ولو بصيص أمل عند هذه الفنّانة (انشراح ، الحلم ، روح) فلا هذه اللوحات ولا تلك التي جسّدت محاولة تعرية الجسد في ثلاث حركات متتالية ومتناسقة (22 ، 23 ، 24) تمكنت من إخراج اللوحات عن طابع الإغتراب الروحي .. ولم تمثل أكثر من محاولة الهروب من الأنا " المبدع " في مرحلة أولى ، والبحث عنها في الآخر " المتلقي " في مرحلة ثانية رغم أن " العمل الفني رسالة موجهة من الأنا (المبدع) إلى الآخر (المتلقي) بقصد التوصل إلى ما يمكن أن نطلق عليه حالة النحن ، أي توحد الأنا والآخر في حالة نفسية واحدة تجمع بينهما وتزيل ما بينهما من فوارق واختلافات في وجهات النظر والآراء والإنفعالات " (1)

*** الحلمة الدامية ... تجربة حياتية ؟ !!**

الخط السريالي عند ريم العياري كان الدائرة المركزية لجل لوحاتها .. التي وإن اختلفت شكلا وتفاوتت من عمل إلى آخر.. فإنها تلتقي في نقطة واحدة مركزية (الخطيئة - والتمرد على الذات)



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن ثمة تعدّد المضامين البلاغية والرأى التعبيرية القائمة لهذه الأعمال ، واختياري للوحة " الحلمة الدامية " لم يكن اعتباطيًا .. فالمتأمّل لهذه اللوحة يلاحظ ما اختزنته ريم بها من معاناة وجودية - بل إنها قد تمثل مفتاحا للدّخول لبقية اللوحات خاصة أنها تحمل رقم 1 رغم وجودها بين اللوحات ، فما اختزنته ريم داخل هذه اللوحة يستدعي النظر .. لما تعكسه من حالات وإرهاصات رافقت لحظات ولادة اللوحة ... خطوة بخطوة . وما يزيد في عمق الدلالة الإيحائية بها هو ما اختزنته العياري بها من سوداوية يتغير مضمونها كلما تغير الشكل الذي وضعت به .. وقد يكون هذا مقصودا .. رغم وجود الإمضاء بالوضع الذي هو عليه في اللوحة ...

باختصار شديد " الحلمة الدامية " تجربة حياتية !! مليئة بالحب / بالموت / بالندم والمعاناة ..

*** للمعاناة بقية :**

هل ما زال في العمر متّسع للبكائيات ... ؟ " بغباء " الفنّانين قد نقول لا .. لأننا نحلم دائما بالغد .. شمعة في اليد اليمنى ... وضمّادات في اليد اليسرى ..

وهكذا نأتي لنهاية هذه المصافحة مع الرسامة ريم العياري .. لكن قبل ذلك وجبت الإشارة والتحية لشخص رأينا في حضوره يوم الإفتتاح أكثر من دلالة وهو السيد سمير المزغني المسؤول



المباشر لهذه الرسامة ـ بالعمل ـ وفي ذلك أكثر من معنى فهكذا يكون إحترام العمر الإبداعي الذي أضحى في هذا العهد للمؤسسات الخاصة دور كبير في الإعتناء به ونتمنى أن ينسج على هذا المنوال كل من يحتضن مؤسساتهم طاقات مجة الخلق والإبداع .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* **تعريف :**

ريم العياري من مواليد 1970 أقامت عديد المعارض الجماعية بكل من المحرس ، قليبية ، طافر الحداد ، متحف سيدي بوسعيد ... الخ ...

ويعتبر معرض ابن رشيق السابع في المعارض الفردية بعد دار الثقافة الطيب المهيري ، البنك المركزي ، بيت " أولاد أحمد " ، دار الثقافة سيدي البشير ، دار الثقافة نوار هيشر ، وقاعة علي القرماسي .

كما نشطت نادي الرسم بدار الثقافة الطيب المهيري عـــام 1990 .

---

(1) د . مصري عبد الحميد منورة ـ التذوق الفني بين المبدع والمتلقي .

لَحَظَاتُ صَحْوٍ

وَلَمَّا طَعَنْتَ الجَنَانَ نَزَحْتُ إِلَى كَوْكَبٍ فِيهِ أَحْلُو بِفَنِّي
نَدِيمِي اليَرَاعُ يَشُقُّ عُبَابَ الفَرِيضِ إِذَا النَّاسُ فَاضَتْ بِحُزْنِي
وَأَطْفَأْتُ نَارَ اشْتِيَاقِي إِلَيْكَ بِنِيرَانِ غَدْرِكَ يَا لِلتَّجَنِّي!
فَمَا أَلْتَفُ الوَرْدَ لَمَّا يُبَاعُ إِلَى كُلِّ ذَاتِ رُوَاءٍ وَحُسْنِ
وَمَا أَبْتَدِ الوُرْقَ تَرْنُو لِقُمْرِي يَحُوكُ الأَغَانِي بِزَيْفٍ وَفَنِّ
تَبِعْتُكَ قَلْبِي وَجِيدًا غَرِيرًا وَلَوَّنْتُ لِي عَالَمًا لَمْ يَسَعْنِي
مِنَ الضَّوْءِ وَالزَّهْرِ وَالعِطْرِ تَشْدُو بِهِ الطَّيْرُ نَشْوَى فَيَرْتَاحُ ذِهْنِي
تَمَادَى الخَيَالُ بِلُبِّي بَعِيدًا وَأَنْسَانِي هِجْرِي وَنَمَّقَ كَوْنِي
تَبِعْتُكَ دُونَ لِحَافٍ بِتَاءْ وَلَكِنْ بِدِفْءِ الوَفَا لَمْ تُحِطْنِي
وَهَلْ يُثْمِرُ الوَهْمُ إِلَّا دُمُوعًا مَسَاءَاتُهُ صَبَاحَاتِ دَجْنِ
أَنَا مَنْ صَهَرَتْ لِلغَرَامِ فَكَنْتَ بِقَلْبِي فَرِيحًا وَصَاحِبَ شَأْنِ
وَلَوْلَايَ مَا كُنْتَ شِعْرًا يُغَنَّى وَكُنْتَ أَرَاكَ الطَّرِيحَ أَنْ أُغَنِّي
أَمَانِيَّ أَضْحَتْ فِرَاقًا وَفَتْكًا بِدَفْتَرِ عِشْقٍ يَنُوءُ بِشَجْنِي
وَكَسَّرَ جَنَاحَ خَيَالٍ بِسَيْفٍ يُوَارِي حَنِينِي وَيُودِي بِوَهْنِي
خَبَرْتَ وَدَادِي خَبِرْتَ مَدَاهُ وَلَكِنْ نَسِيتَ إِبَانِي فَدَعْنِي
لِذِكْرَى إِذَا رَفْرَفَتْ فِي خَيَالِي وَدِدْتُ لَوِ المَوْتُ يَهْصِرُ غُصْنِي
حَبَبْتُكَ حُبًّا عَمِيقًا مُبِينًا فَأَيْنَ مِنَ الصِّدْقِ وِدُّ التَّجَنِّي ؟
تَقَاتَلَ فِيكَ الشُّعُورُ وَذِهْنِي فَقَتَّلْتُ قَلْبِي لِيُقْمِرَ أَمْنِي

رقية بشير

الختمـــــة

شعـــر : فـــؤاد قـــادي
(الجزائر)

إلـــى بختـــي بـــن عـــودة فـــي بهائـــه

... ...

يا فرحته حين سكنها
أعطته حلم الطفولة والنهد
ياجنته سائرة تحت قدميه / أمه

... ...

ملح / سكر
حياة على هامش الخنجر
وقبيلة نفت البتول
... / وتموت تحت قدميها النخيل
يا ...

* النداء السمفوني
موسيقى بتوفن
السمفونية التاسعة *

... ...

... ...

قطعة لإله مقتول
قميص أسود لنبيّ كذّاب
قلمٌ لشاعر فرّ من تهمة الزندقة
لم يسمع صرخة إلهٍ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صار أطرشًا / لكن قلبه دمى حزنا
شدّ نقطة الفصل / أنهى مهزلة التاريخ
يا لغبائه
نسي الشاعر يقتل كلّ المشاهد / الهوامش
... ...
ـ يا دين الرب ـ
أعطته حفنة من تراب
أعطته الماء
حلمه كلّ سنة يكبر
وكلّ مساء يبحث عن النهد
ينمي فيه الرغبة / الإنتباه
يداعب الأصابع
كي تكتب الماء / اللغة
هي غلطة الملح حين أغرق الجسد بحرا / البهاء
هي غلطة البحر حين قتل السؤال في الإنسان / النبع
هي احتمالات الغد /
ـ يا دين الرب ـ
أعطته السرّ كي لا يقتل كل الهوامش
يا فرحتي ...
... ...

وهران في 1996

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وجـــع البـــــوح ...

شعر : صالح صوايدي

وَجَعٌ يَتســـرّبُ إلَيَّ
كَمُرورِ السّنـــين علَـــيَّ
وأيَّامُنَا ...
تَعْدُو وتَعْدُو وتَعـــدُو
وأفْرَاحُنَا مُكَمَّمَـــةٌ
بأحْزَانِ السّنين وأحـــلام الطّفـــوله
لَكُمْ قُلْتُ : لَعَلَّـــي أقْطَعُنـــي
مَسَافَات ، مَسَافَـــات
وأنْتَظِرُنِي أيّامًا وأيّـــامًا
هُوَ البَوْحُ يُضْنِينِـــي
هِيَ النَّفْسُ تُعْيِينِـــي
هُوَ القَلَمُ يَدْفَعُنِـــي
هِيَ الكَلِمَةُ تَحْرِمُنِي
لَكُمْ قُلْتُ : لَيْتَنِي
أحْيَا وأحْيَا
عَارِيًا ، كَمَا النّور في العَتَمَهْ
والبَوْحُ فِي الكَلِمَهْ
ولكن هي الأيّام تأخذني

هي الأحْلاَمُ تحملُني
وأنا مفتونٌ بِسِحْرِي
قمري يَبْكِينِي
وأيَّامِي تلْعَنَني
كم قلْتُ : إنّي مسافِرُ
في ثنايا الرّوح والجَسَدِ
هو الميلادُ يَدْعوني
هي الحياةُ تشدوني
هو الوجدان يُغنيني
بَوْحًا ، يتردّدُ بين الأضلع والجسد
والرّيح تمرّ على بابِي
تخبرني بأنّهم رَحلُوا
وأنا قابِعٌ فِي ...
والشتاء يَدْنُو منّي
كَمْ قلْتُ : إنّي شتاء النّفس
والبَوْحُ يُضنيني ويُعْييني ٪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

س . ص .مكثر

ارتـــياح في السّـفـر



شعر : الهادي العثماني

هـا أنـا ..
أرتـاح مـن سفـر إلـى سفـر على درب الـرّحيل ،
أسـرج أحلام راحلتي ، وأنطلق مـع غبش الدّجى
متـوغـلا دون الـوصول .
إلـى مـرافـئك البعيـدة خلف بحـر المستـحيل

إنّـي لـك ...
أحيـى انتـماءً في حنيني الواجف الـوجل الخجول
سـأنتمي مـا دمـت أرتحـل وحـيـدا
فـوق خـارطـة الـزّمان عـلى الأمـانـي
تـبيعـني الأشـواق ،
فـي سـوق الحنـين وتشتـريني علـى المـدى
تبـتاع أعـماق المـواقـع فـي دمـي ،
يـذوي سـدى
مـا بـين أروقـة الصـباح وظـلّ أرصفـة الأصـيل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فـــأنتحـــي ركنـــا قصيًا تنـــسج فيـــه الخـــواطـــر خيطها
تقـتات من وجـعي الأصيل
إنّنـــي دوما أســافـــر هاهنـــا أو ها هنـــاك
وزادي أحـــلامي التـــي تنتابني مثـــل العـــليل
فـــأقضـصي ليلـــي لمـــاّ يجفونـــي الكـــرى ،
يجتـــرّ مـــن سهـــري الطـــويـــل
وأحتـــوي ما كـنت فـــي الماضي اجتررتـــه
عبـــر ذاكـــرتـــي مـــرارا بين أروقـــة الـــفصول
وأصرخ مـــن مـــق صمتي منـــاديا ..
هل يـــا تـــرى ؟!
يرتـــاح يـــومـا فـــي النـــوى درب الـــرّحيـــل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هـ . ع
القصـــر الجـديد

أريـــج الأصـــــداء

بقلم : محسن الكريني

الأريـــج الأوّل : نفحـــات سجنتهـا اللّحظـــة الشّـــاردة

الدّيباجـــة

... كان الصّوت يقودني في الظلمة ف إلى المجهول أو المعلوم ، أعرفـــه ولا أعرفـه ، أحفظه في التّاريخ وأنساه فالنسيان مثل غريزة البقاء ، دفاع عـن الحيـــاة ضـــدّ المـوت ...

الدّكتورة نوال السّعداوي

النفحة الأولى : لن أنساك يا متنبّي ...

ما أحوجنا إليك يا أبا الطّيب في زمن كزمننا .. ما أحوجنا إلى أريجك وضجيجك وقرطاسك وحرابك ... إنّ كلمك صنو لا سمك طيّب أصله ثابت في الذّاكرة وفروعه تسرح عبر الدّروب الطّويلة ... كنت معلّقا بين السّماء والأرض عندما أطلق ربّان الرّاحلة أنّنا فوق حلب ... كنت أظل كفضولي ليس له قرار ... توهّمت أنّ قمم قلعة الحدث تشمخ كرمح أسطوريّ ترهب الغادي والرّائح ... قلعة بنيت والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم ... وياتي الصّوت مدويًا قربنا من اللاّذقية ... وفي اللاّذقية ما زال المعرّي يصرخ من الفتن ... يدوّي آذانه ، يسحب من رجله جرّاء ك يا متنبّي لأنّك عفّت الجرح وصرخت في زمن السكوت ... لأنك انتفضت من القبر وولدت من أمّة عاقر تصلّي للخبز والحشيش والقمر ولكنيت اللّون صافيّة والزّق والقينة الفجريّة ترقص وهي عارية ... ماذا عساني أفعل أيّها المتنبّي وأنا المسكون بوجع الأسداء وأريج خيانة نوي القريبي ؟ ... ماذا عساني أقول والرّاحلة تنزل سهوب دمشق ؟ .. هل أقول « لامة ، فاضة أضاءة ، دلاس ، أم « لا أرى الأحداث مدحا ولا ذمّا أم حبيبتك قلبي قبل حبّك من نأي ... ؟ لست أدري فالجراب حبلى أو شمة والشقاشق سلّم هرس الكلّ والقلب المهيض على أبواب مدينتك يصلّي صلاته الأخيرة ... أيّها الأريج على مدى الأزمنة يستوقفني إرثك الصّادي :

لهذا اليـــوم بعـــد غد أريج

ونار فـــي العدوّلها ضجيـــج

عرفتـــك والسّيوف معبّـــآت

وأنـــت بغير سيفـــك لا تعيج

ووجه البحر يعرف من بعيـــد

إذا يسجو فكيف إذا يمـــــوج

الأريج والنّار والضّجيج والبحر والموج ... كلمات لم أعد أفقه معناها يا متنبّي تسر بلتني دهاليز البحث عنها فالمضيّقة تتقيّأ ضحكتها الحمراوية وتدعوني إلى شدّ الحزام ، إلى الاستواء

في المكان إلى تغيير عقارب الزّمان والإدلاء بالهويّة وجواز السّفر ورقم الجلوس وتخيّرني بين الشاي والقهوة وبين العصير والوسكي ... المضيفة مزعجة هذا المساء ... آه لو تدري كم هي مزعجة ... ومع ذلك لن أنسى دمشق .. لن أنسى حلب واللاذقية ... لن أنساك يا متنبّي ....

النّفحة الثّانية : مراسيـــــم ستاتي لاحقا ...

أشعر بنشوة حبلى تجتاح الكيان ... نشوة في أن أكون لوحدي ... أفرح وحيدا ... أهزأ وحيدا ... أسقط وحيدا ... أتعثّر ... أجري – أكبو ... أجرح ... أحزن ... أمقت أكره ... أحبّ لوحدي ، الوحدة عالم خلاّب .. عالم يمنحك الأمان والالتفاف إلى عوالم غدت وأخرى هوت ... وواحدة قد تأتي ولا تأتي ... كنت أرى في الوحدة السّجن والتّوق إلى الجمع ... إلى التّذاكر .. إلى التّواصل والبحث عن القمر المفقود ... والفردوس المفقود ... والكنز الذي أضاعه أجدادي منذ آلاف السّنين .... هذه اللّيلة سأظلّ لوحدي ... سأقفل نوافذ الانتباه ... سأحرق كلّ الرّسائل التي تأبيني ... لن تغريني حمرة زهور البطاقات ... ولا الأحرف الطّويلة العرضيّة المنقوشة المسبوكة ولا العبارات المهروسة ... لقد أعلنت الحداد على الجماعة ... أليس من حقّي أن أكون وحيدا ؟ ... في أبسط حقوق المرء ... إذا كنت قد خالفت القانون ... فعندكم كلّ منظّمات العالم ... وكلّ دساتير العالم ... انفضوها ... احرقوها وذروها رمادا في الرّيح ... هذه اللّيلة سأظلّ ساهرا .. لن أطفئ الفتيلة التي أشعلتها ... سأرقبها إلى آخر الرّمق ... ملّت شطحات الأضواء ... وزفرات الأصداء وهمس المواويل .. ودوي الهديل والبرك المغمورة أوحالا ... سوف أقعد أسفل السلّم العتيق ... فالكلّ انساق إلى أعلى الشرفات ... يتسابقون إلى مجد مزعوم ... إلى الأمام ... إلى الأعلى .. إلى الأفضل ... إلى الأرقى ... أفعال نفضيل في غير موضعها ... تراتيل أناجيل تدعو إلى عدم العدم ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصّة تذكّر بقصص كان قد كتبها ابن المقفّع في غابر الأزمان ... كان قد تحدث عن ديك عشق أفعال التفضيل ... كما عشق أعالي السّلاليم ... وتفنّن بشدوه بألوان ذيله ... عاشر نخوة صلف الأجداد ... كانت النّهاية أن شتم الألقاب في غير موضعها ... والأعياد في غير موضعها ... والجماعة في غير موضعها ... هذه اللّيلة سأضع كلّ القصص في مجرى السّيفون ... لن أذكر قصّة ليلى وأهل ليلى ... وجلجلول والزّبرقان وزقفونة ورقصة مارغريت وشدو أغانيها ... هذه اللّيلة لن أبحث عن كميت اللّون صافية ... ولا طقطقة الكؤوس الوضاءة ... لي شغف كبير بأوراقي القديمة ، وطقوسي القديمة ... لي حنين إلى دفاتري ، إلى خطوطي المعوجّة والقويمة ، إلى التّلطيخات والخربشات والحافظات وقد قتلها النّسيان ... أعترف بأنّي مشغول بالنسيان ، بتتبّع منابع الذّاكرة ... أرّقتني وخزات السّماسرة وسياط ذوي القربى وناكري الجميل كم يلذّون زفرات المكلوم والرّقص المزوشي على أعتاب سذاجتي البائسة ... حرونون كبغلة الجفناوي كانتان بشّار ... هذه اللّيلة سأصرّ على وحدتي ... لي مراسيم ستأتيكم لاحقا ...

النّفحة الثّالثة : ريتا في ليلة الميلاد .

صباح الفجر البكر يا ريتا ... صباح الأمسيات الوديعة ... كلّ سنة وأنت على نعمة ... رحلت ورقة من العمر يا ريتا ... سقطت كما تساقط السّنون العجاف ... كيف قضّيت ليلتك البارحة ؟

لعلّك رجعت إلى رسوم أنسها النّسيان ... لعلّك كنت بين الشّموع الفرعونيّة تميسين ... فأنت من سلالة برج العذارى : تؤنسك حكايات مريم العذراء ... وموسى ... وعيسى .. وكلّ الأنبياء والقدّيسين ... هكذا كنت دوما تبحثين في غفوة من الرّجرجة عن أنس ينساب من الماضي ... كم كنت أسترق إلى جفونك تسبّح في صلوات لا أفقهها ... كنت الغيمة تجتاح الأراضي البور اليابسة ... لماذا كانت تهزّك ليالي الميلاد ؟ كنت تتنقين فيها أحلى ومضات العشق ... وتبعثين بكلّ طقوس القبائل العنيدة ... وتكسّرين أصفاد الطّرق الملتويّة ... قد أيقنت يا ريتا أنّك العناد في أصل ما يطلقه فقه اللّغة ... كنت العمق دوما ... إلاّ في تلك الآونة ... لست أدري ما الذي أصابك ؟ لعلّها لحظات الجنون التي حدثتني عنها طويلا ... ولحظات الغباء كما أسمّيها ... كان الكلّ في فرح يا ريتا ... كانوا يتقاسمون فرحة عيد الميلاد ... حتّى الصّبايا اللاّتي ما عرفن رقصات الفلامنكو كنّ كالبارعات سارحات ... حتّى اللاّتي ما عرفن الزّينة ولا الكساء كنّ يلبسن الرّبيع ليلتها يا ريتا ... إلاّ إيّاك كنت ساجية باهتة ... شاحبة ... واجمة ... كم كنت أطرف راهبة ... كان بالإمكان أن تحسني مجاملة الضّيوف ... والوقوف ولو للحظات على أزمنة الحبور المدوّي ... كنت المربدّة على صلوات الرّعادية ... وددت لو دخلت الحلقة وكسّرت الكؤوس وحرقت الأساور وقلبت الدّيكور وددت لو أنّك فعلت ... كنت صامتة ... كنت ريتا جديدة ... أهكذا يحتفي بعيد الميلاد ؟ أهكذا تدقّ طبول مريم العذراء ؟ افعلي ما شئت لأنّك من سلالة القشتاليين بل دمعة من دموع عبد الله ... سأعيرك المفتاح الذي انتظرته طويلا ... لتدخلي غرناطة القديمة ... المسيح ينتظرك هنالك ... إيّاك حبّذا لو تفرّقين بين القدّيس والزّنديق فعبد الله زرع الأخاديد جورا عندما أعلن النهاية إيّاك من من عبد الله ؟

آخر النّفحات : الجارية للبيّاتي

سقطت مثل تفاحة في الوحول
وتحت ذيول الطّواويس
في زمن المرأة الجارية
كلّ من نظموا الشّعر عاجوا عليها
وطافت عليهم
وكانت هي السّاقية
رقصت في فضاء اتهم عارية
تركوا عند سرّتها قمرا
ورماد القصيدة والقافية
تبادلها الكلّ
خانت طفولتها
بمرايا العيون
وبالنّظرة الزّانية
هفوت إليها
وكنت أبادلها الحبّ في الهاوية
ولكنّها سقطت في الوحول
وعادت إلى أصلها جارية .

مسقط في 25 اوت 1996

الورقـــة الضائعـــة

بقلم : حسني سيد لبيب
(القاهرة)

طابوران طويلان أمام جمعية استهلاكية ، طابور للسيدات وثان للرجال ، يتدافع الناس ، يتعالى صياحهم ، الطابوران غير منتظمين ، تنثال الشتائم من مرزوق ، جزار الجمعية ، ساطوره يرتفع عاليا ، ثم يهوى على اللحم ، يقتطع منه بيد مدربة ما يوازى الكيلوجرامات التي سيقوم بوزنها ، من وقت لآخر ، يخترق الطابورين المسؤول الأول في الجمعية ، الأستاذ راتب ، يهوى بكفه الغليظة على ظهور سيدات وفتيات فقيرات ، كيفما اتفق ، زاعقا فيهن كي ينتظمن في الطابور .

وفجأة ، يتناهى للأسماع بكاء بنت لا تتجاوز العاشرة ، اعتزمت عفت شراء كيلو لحم من العشر جنيهات ، قد أوصاها أبوها طاهر بأن تحتفظ على " الورقة أم عشرة " الورقة سرقت ، ربما .. أو سقطت من يدها ، لا تدري .

صوت سيدة :

ـ ابحثي في جيوبك ..

تسابقت العيون في فحص مواطيء الأقدام . صوت هامس :

ـ يبدو أنها سرقت .

علا صوت راتب :

ـ احذروا الزحام . كل واحد يأخذ باله .

بكاء متواصل ، لأول مرة تمسك بورقة مالية كبيرة ، ولأول مرة تضيع منها النقود .

كيف تواجه أباها ؟ ماذا تقول ؟ كيف تتصرف ؟ لم تقو على التفكير في شيء .

ارتكنت إلى حائط ، وواصلت بكاءها المصحوب بالنشيج ، خيم صمت وقور على الطابورين ، عيون الواقفين محدقة في عفت ، ملؤها الاشفاق والرثاء .

يعلو صوت عبد الرحمان من طابور الرجال :

ـ فلنجمع للبنت ما نقدر عليه . انظروا لحالها ، الصبية الغلبانة ..

ويسط منديله الأبيض على راحة يده ، بدأ بنفسه ، فأخرج ورقة فئة الخمسة

والعشرين قرشا . تبعه آخر بورقة مماثلة ، تمتد يد الفتاة بعشرة قروش . انقطع المد فترة ، ثم عادت الأيدى تقدم المساعدة ، بتردد في البداية ، ثم بحماس حيث تقاطرت الأيدى من كل اتجاه ، صوت عجوز يحذر :

ـ أتصدقون الصبية ؟ .. هل يمكنها أن تحمل عشرة جنيهات كاملة ؟

صوت آخر يؤيد :

ـ ربما هي محتالة . الاحتيال فنون

احتد صوت قوى :

ـ انظروا إلى الفتاة البائسة . أمثالها لا يفطنون لحيل اللصوص والنشالين.

صوت العجوز يردد :

ـ لابد أن وراء ها عقل مدبر . هي مجرد أداة في أيدي عصابة .

صوت شاب ملتح يرد على العجوز ساخطا :

ـ هذه البنت أعرفها ، إنها عفت بنت عم طاهر ، صاحب كشك السجائر .

يزيد كلامه صوت ثان :

ـ عم طاهر رجل نقي القلب .

تدافعت الأيدي واضعة النقود في المنديل . ثم جمع عبد الرحمان المنديل ، ورفع عقيرته معلنا :

ـ جمعت تسعة جنيهات ونصف .

صاح صوت :

ـ يكفي هذا المبلغ .

رد آخر :

ـ يكون أفضل لو أكملنا العشرة جنيهات

مازالت البنت تبكي ، غير مكترثة بما يدور حولها .

أضاف عبد الرحمان خمسين قرشا . ويدنو من عفت ، يحاول أن ينقدها المبلغ ، فيعلو صوت بكائها ، ولا تمد يدها . يأتي عم طاهر ، يتفهم ما حدث . ما ان تمتد يد ابنته ، حتى يعترض بكفه ممسكا بيدها .

ـ لا يا أستاذ ، يعوض علينا ربنا .. لا .. أنا لا أتسول .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ ليس تسولا .

ـ وأرفض المعونة .

يقولها متأثرا . خفت نشيج الصبيح . تحول بكاؤها إلى أنين مكتوم ، وشهقات حزينة .

عم طاهر يطيب خاطر ابنته ..

ـ اهدئي يا عفت . ضاع المبلغ ، ولكن .. لا تأخذي معونة ولا تتسولي ، إياك ، هذا أمر محزن .. جدا .. أكثر حزنا من ضياع المبلغ .

دهش الواقفون المتحلقون حول عم طاهر ... وأصيب عبد الرحمان بحيرة أربكته ، فماذا يفعل بالمبلغ الذي جمعه من الناس ؟ يتجه إليه راتب ، بصوته الجهوري :

ـ أعطني المبلغ ... أسلمه لجمعية خيرية .

يندفع صوت :

ـ وتأتي بإيصال .

ـ بالطبع .

ويندفع صوت ثان :

ـ ومن يعلمنا بالايصال ، بعد أن ننصرف من هنا ؟

وتقول سيدة بصوت حاد :

ـ كل واحد ، يسترد ما دفعه .

ويرد صوت يتقرب لراتب :

ـ الأستاذ راتب معروف بالورع والتقوى .

ـ هذه أموالنا .. دفعناها من أجل البنت المسكينة .

طال الحوار والجدل ، بينا استقرت الجنيهات العشر في جيب راتب ، عم طاهر يقف مع ابنته ، يهدئ انفعالها . لكن عفت ما زالت تفطم حسها على البكاء ، ولا تدري شيئا من أمور الحياة ، سوى أن الورقة الضائعة هي الورقة الوحيدة في جيب أبيها ، وكان قد تحدث مع أمها ، عن اعتزامه شراء حذاء جديد من " الورقة أم عشرة " .. بدلا من الحذاء البالي الذي تنتعله قدماه .

---

* إحدى قصص مجموعة (كلمات حب في الدفتر)

نـــشـاز

بقلم : آمنة الوسلاتي

سوّت المخدّتين وجذبت طرف اللّحاف إلى أسفل حتّى تسهّل حركة الإنزلاق تحته لمن يريد النّوم . كان شي ء ما يقبض على حلقها ويدفع بالدّموع إلى عينيها . وكانت تأخذ أنفاسها بصعوبة حتى تقضي على ما يخنقها في غلظة . « اللّيلة تتكشف الأسرار وتفتح مغاليق النّفس أبوابها .. لا يحتاج الأمر - في الحقيقة - إلى كلّ هذا العنت فهو واضح ومكشوف . وما علي إلاّ أن أقف أمامه » .

وصلتها حركته غاديا رائحا بين غرفة المكتب ودورة المياه .. هاهو يستعدّ لسهره الذي يرفض أن تشاركه فيه .. سهر يقضيه بين التنهّد وأنغام سحرتهما معا ، وحلّ وترحال بين هذا المكان وذاك في البيت .

متى بدأ يحصل هذا ؟ لا يعرف بالتحديد ولكنه بدأ يحصل منذ مدّة تبدو لا نهاية لها .. فجأة ، أخذ يسهر في غرفة مكتبه وحده .. مع الأوراق والسجائر وأكواب القهوة . وفجأة شمله تهيام لا يصحو منه واعتراه ذبول وكرب عظيم . وفجأة هجره النّوم .. يدعيه في بداية الليل ثم يتركها وينسلّ من فراشه بجانبها ويعتزل بغرفة المكتب أو يروح ويغدو بين الغرف الأخرى لا يستقرّ به مكان . وهي تفطنت إلى ذلك من أوّل ليلة وتبعته إلى مكتبه فأغلق - منزعجا - كرّاسا صغيرا كان يكتب فيه وسألها مقطّبا : « لماذا لا تنامين ؟ » .

فسألته بدورها « لماذا لا تنام أنت ؟ » فردّ مقطّبا : « لا أريد » ، فقالت : « ينبغي أن ترتاح » . فردّ مقطّبا : « أنا مرتاح بهذا الشكل » واستغربت نبرة التبرّم في صوته فرجعت إلى الفراش محزونة تكاد تبكي ..

رفعت طرف الغطاء وانزلقت تحته وتحفّز كلّ ما فيها وهي تراجع ما ستقوله عندما يتمدّد بجانبها ، لقد قرّرت أن تقول له ما ستقوله منذ أيّام ، ولكنّها ما إن تر حزنه وتلمس تبرّمه وتقرأ في عينيه ، وهو يرفعهما عليها عندما يأكلان أو يتحادثان ، ألوانا من العذاب شتّى حتّى يسترخي حماسها وتتركها لهفتها لمواجهة الأمر وتقرّ منها كلّ الجمل التي أعدتها فتتمنّى النّفس بفرصة أخرى « لكنّني الليلة سأقول ، ولتأخذ الأشياء الشكل الذي تريد ! فهل سنصل إلى أسوأ ممّا نحن فيه ؟ » .

نظرت في اتّجاه الباب فشدّتها لوحة صارخة بالألوان والورود والجمال . صورتهما يوم الزّفاف ! هل يمكن أن نفقد السّعادة بمثل هذه السّهولة ؟ ولماذا تعكّر كلّ شي ء فجأة ؟ أما كان يمكن أن تحصل مقدمات فنستعدّ ؟ .. كانا يتناظران في الصّورة بلهفة وشت بها أصابعهما المتشابكة وشفاههما المتقابلة .. « سأقول إنّي أعرف وأدرك . وإنّني فهمت ما وقعتَ فيه منذ البداية ، وإنّ ما يؤلمني ليس ما يحصل لك وإنّما ما يحصل لي » سمعته وهو يدخل غرفة غسّان ابنهما ، وتصورته يسوّي فوقه الغطاء ويقبّله على وجنتيه أو فوق يده . واعتصرها حزن لا عهد لها به

وتساءلت « فلماذا تبتعد عنّا بهذه السّرعة ؟ ولماذا تقع فيما وقعت فيه ؟ » .

وارتفع وجيب قلبها وهي تراه يدلف إلى غرفتهما ، وعاد ذلك الشّيء الغليظ يقبض على حلقها ، وأدركت أنّها ستعجز عن أن تقول له شيئا مثلما كان يحصل سابقا .

لم تتعوّد على هذه المواقف معه . وإنّما كانت حياتهما بسيطة لذيذة فيها إقبال كثير وانشراح وضحك ومصافاة . ولقد عاشت معه سنين على وقع أنّها أفضل امرأة لديه وأنّها الحقيقة الوحيدة في حياته كما كان دوما أفضل حقيقة في حياتها « فمن يعينني على مواجهته ؟ على منعه من أن يتصوّر أنّني لا أفهم ولا أدرك ؛ وأنا أستعدّ الليلة لأفتح مفاليق نفسه ، لأقول إنّني أعرف وليكن الجحيم بعد ذلك ! » .

تمدّد إلى جانبها فغطّت وجهها بذراعها وقام الفراغ بينهما ، تزحزح قليلا حتّى التصق بها وقال : « لا تريدين أن تريني ؟ » فسكنت نفسها قليلا وخلّصتها تنهيدة قوية من كثير ممّا كان يضغط على صدرها وقالت : « أريد أن أقول لك شيئا » .. أنزل ذراعها من على وجهها ووضع رأسه في حضنها ـ تماما كما يفعل غسّان ـ وقال : « وأنا أيضا » .. وبكت أعماقها « هل تجد في نفسه الشّجاعة على مصارحتي بما يمرّ به ؟ » . ثم سكتا . وسمعت نفسها تقول بهدوء : « من هي ؟ » .. أدخل ذراعه تحت رأسه وكتفيها وأخذها إليه « ها هو يكفّر عن ذنبه ويتودّد قبل أن يفرقنا الطّوفان » .. ثمّ اتّكأ على مرفقه وجعل وجهه يعلو وجهها وسأل : « من » أبعدت وجهها بحنق واضح وضغطت على مواقع الحروف : « من تأرق من أجلها ، ونكتب ، وتسهر على أنغام أحبيناها معا » .

امتلأت عيناه بالدّموع وأخذ يدها ووضعها على شفتيه دون أن يتكلّم ، وتأوهت « لماذا أفهمه بهذا الوضوح ؟ » .

واستوت عندها الأمور . إنّه يعترف بدموعه وملامحه وحزنه الفائض فأيّة معجزة أنتظر ؟ إن هي إلاّ لحظات وينتهي كل ذلك العنف الذي شدّنا إلى بعضنا » . واستغربت أنّها لا تحزن إلاّ من أجل نفسها ، وبدا ابنها خارج دائرة خسارتها تماما وتمتمت « ألا إنّي أحبك ! » .. وغمرها امتنان عارم وهي تتبيّن أنّ الصّوت لم يغادر حلقها وأنّه وهو يلصق باطن يدها بشفتيه لم يبلغه ما كانت تتمتم به .

وقال فجأة « لقد زرت الطّبيب » . واجتهدت حتّى تهضم النّشاز المعنوي الذي قذفها فيه ، واستدارت إليه مقطّبة في دهشة فرمى بثقله على المخدّة وقال في اقتضاب « دمائي ملوثة » .

التهب داخلها فاستوت جالسة وصاحت « إنّني لم أفهم » فردّ وهو يتنهد : « لو كنت مؤمنا لانتظرت معجزة من السّماء ولكنّ العلم كان حسمه واضحا » .

تخبطت في شرك غير مرئي وضربت الهواء بيديها ورأسها بينما كان يقول : « هناك أمل في تأخير البلاء فنحمد السّماء على أيّ حال . »

وارتفعت صرختها في سكون اللّيل : « لا » .

هل تعرفون هندا ؟

بقلم : فاطمة حسين العيسى
- الكويت -

تمرّ أمامي كل يوم وجوه ووجوه قلما يستدعي أحدها مني التفاتة ، ونادرا ما تتطور الالتفاتة الى اهتمام .

مغرور أنا اعترف ..

أنتم فضوليون .

لا .. لست راهبا ، مثلكم أنا أجد صعوبة بالغة في السيطرة على نفسي و منعها من ممارسة حق أو باطل ، عندما يجد هواء طريقه الى قلبي لكنني مرتاح .. مستقر .. ثابت على أرض صلبة ، لي من العمر والتجربة ما يجعلني أعيش جاذبية الحياة اليوم واستمتع بها .

حياتي العائلية هندسية ، رائعة الموازين . زوجة تصغرني بعامين اثنين ، رحم الله ذاك العم وتلك الخالة الصائغين الرائعين لأحلى وأبهى حلية زوجية . لي من الذكور اثنان من أجود الاصناف . ولي من الاناث اثنتان من أجمل النماذج . كل شيء معهم وربهم يسير بنمو صحي طبيعي .

أظنني أشبعت فضولكم إلى حد التخمة والتخمة تصيب الجسم بالخمول ، والخمول يحول الجسد الى كتلة من رصاص ، وهل يقتلع الرصاص من الأرض إلا بعاصفة ؟؟ وأي عاصفة . لا شك أنكم تعرفون أن ولا يعرفونك ، تجد نفسك راغبا في الشرح ، مستطردا في سرد تاريخ حياتك المهنية ، وأمانتك الوظيفية التي يتوجها دائما حرصك على مواعيدك واحترامك لأوقات الناس . ولا تلبث أن تضيع بين هذا وذاك وكأنك أمام لجنة اختبار لقدراتك في تبرير ما لا حاجة لتبريره . وفجأة تصحو على حقيقة لا تخلو من مرارة . أنت هنا في هذه البقعة سيد نفسك وسيد هذا المكتب ، وربما سيد من يدخل هذا المكتب .

سيدي ! كيف ضاع منك كيانك بهذه الصورة المفاجئة ؟؟ لم تكن أكثر من نظرة ، مجرد نظرة الى ساعتها مصحوبة بنصف ابتسامة .

لا لا ، لم يكن ذاك هو السبب ، بل هذا الثبات الغريب والغوص في المقعد مطوية الساقين وكأنها مخلوق برجل واحدة . والاستغراق العجيب بملاحقة المقال الافتتاحي لإحدى الصحف ، أي تنازل كبير مارسته برفع عينها من المقال الى ساعتها ، ثم الى المقال مرة أخرى ، لتتم السطرين المتبقين .

ايضا .. ماكان هذا هو السبب الحقيقي . السبب ابسط من ذلك بكثير .

لأول مرة منذ تبوأت هذا المركز لم أدخل مكتبي ومنتظري لا يهب واقفا لاستقبالي ، رجلا كان او امرأة .. تضحكون ؟ . ربما تضحكون على سخف السبب ، ولكن كم في الحقائق من مضحكات ؟ لعنة الله على النساء ، كل النساء ، وعلى تقاليدهن التي لا تفرض عليهن الوقوف

لرجل ذي أهمية مثلي . ولعنة أخرى على هذا الارتباك الذي يفلت مني رغما عني ورغم محاولاتي لتقييده بسنواتي الاربعين وكسورها ، وبخبرتي وبمركزي الاجتماعي والوظيفي ، وبكل ما يحيط به وبما يختزن أيضا من هيبة وعليكم السلام ، قالت .

وبدأت مرحلة القفز من : الأعمار بيد الله ، إلى لا بد أنك سمعت المذياع هذا الصباح ، كم اكره أن أبدأ يومي برداع عزيز ، لكنها سنة الحياة . الواجبات الاجتماعية ، متطلبات المنصب والظروف العائلية . وكلام كثير كثير

جل عواصف الزمان وكوارثه تحمل أسماء اناث ، وعاصفتي كانت أنثى وكان اسمها هندا !

مالت برأسها باتجاه المذياع ذي الصوت المنخفض بينما انشغلت يدها بصب فنجان من الشاي اختتم به افطار ذلك الصباح وقالت :

إنا لله وانا اليه راجعون ..

أمرك لله ، ستبدأ نهارك بالعزاء في مقبرة الصليبخات . الدفن الساعة الثامنة والنصف .

ثم علقت زوجتي على التقليد الذي اصبح شبه فرض على الانسان ، وكم هي سيء أن يبدأ به يومه ، فاوضحت لها وأنا أضع فنجان الشاي في طبقه بعد أن أفرغته في جوفي بسرعة . أوضحت أنها يجب أن لا تتشاءم من أمر أصبح بالنسبة لنا ـ نحن الرجال ـ عاديا جدا ، بل أكثرنا صار يرحب به لأنه الحل العملي السريع للقيام بهذا الواجب الاجتماعي الثقيل ، بدلا من محاولات البحث عن ديوان فلان او فلان والوقت في المجتمعات التجارية كمجتمعنا عملة صعبة .

كان يوما من تلك الأيام ، وكان طبيعيا أن أصل الى مكتبي بعد ساعة ونصف ساعة من الموعد الذي اعتدت الوصول اليه فيه . ومثلي ـ عادة ـ لا يحاسب على تأخيره لأنني أحمل رتبة مدير لشؤون الموظفين ، وخبرة خمس عشرة سنة في هذا الحقل ، وفي هذه الوزارة بالذات . وعلى الرغم من قصر المدة ـ كما تبدو للبعض ـ إلاّ أنني أشعر ويشعر أغلب العاملين معي من الكبار والصغار ، أن كل لبنة في هذا المبنى قد امتزجت ببعض قطرات من عرق يدي وجبيني ، أشعر وهذا المبنى وهذه الممرات وهذه الأبواب بأبوة متبادلة .

كثيرا ما نتشاجر وكثيرا أيضا ما يقع أحدنا في أحضان الآخر . ما توقعت أن يحاسبني أحد على الاطلاق . لكنني أيقنت بعد بضع دقائق من دخولي المكتب ، وحتى قبل وصولي الى البقعة التي يحتلها كرسي جلوسي ، أيقنت أن الحساب الصامت أقسى وأمر ، خاصة ما يصدر عن اناس لا تعرفهم قلت لا أذكر منه الآن شيئا لكنني أتمنى أن لا أكون قد خرجت عن الموضوع اكثر من مائة مرة وان تضيق دائرة فشلي في ربط اذيال الحكايات بأعناق الأخريات ، بعينيها اريد ان تضيق دائرة فشلي . هذه العيون الدعجاء الشديدة العمق التي تواجهني ، تضيق وتتسع وفقا لنبرات صوتي والرأس يتأرجح ببطء بين الكتف الأيمن والأيسر ، يوزع عبء كلامي بين اذنين مزدانتين بقرط صغير صغير ... والذراعان معقودتان والساقان ملتحمتان والتقوقع ذاته ، والهدوء ذاته ، والصمت يزداد عمقا ، أنا أهذي وأهذي .

لكنها قاطعتني :

ـ سيدي ! لست هنا لمحاسبتك ، لا أحب أن أتدخل فيما لا يخل لي به .. جئتك في الموعد الذي

اتفقنا عليه هاتفيا . تأخيرك لم يزعجني . (يبتسم) بل اعطاني فرصة الاطلاع على صحف الصباح .

انشطر اهتمامي بنفسي شطرين بسهولة غريبة ، أهديتها احدهما ـ على غير عادتي ـ وقلت :

ـ هل من جديد ؟

ـ تضحك : جديد !! في صفحاتنا !! لقد اختلط القديم بالجديد ليخلق جوا من الرتابة غريبا ... أتعرف ؟؟ إنني اتصور أنه قد آن الأوان لتتغير رسالة الصحافة بدلا من محاولات على طول تلك السنين لجذب القارئ يجب أن تعطيه الآن حريته ليعود الى صديقه القديم : المذياع .

ـ وهل تكذب الصحافة ؟ هل حقا أنت تعتقدين ذلك ؟

ـ هناك فرق بين الكذب واخفاء الحقيقة ، لكن ليس هذا هو اعتراضي على الصحافة ، وإنما صبها جميعا في جدول واحد . وبدون استئذان استطردت ، وكأن سماعي لها فرض عليّ . اعترف لكم هكذا شعرت فعلا .

ـ قالت : لا أظنك تختلف معي أن المقال الافتتاحي في الصحيفة ، أي صحيفة هو مركز الثقل . هو الذي يفترض أن يحمل وجهة النظر في أكثر القضايا حيوية ، قومية كانت ام انسانية . لكن عندما تستقبل ثلاث أو اربع او خمس صحف يومية وتقرأ المقال الافتتاحي وتشعر أن الجميع يعزف نفس النغم ، ألا تفتقد اختلاف اللون والطعم ؟؟

ألا يؤدي بك ذلك الى فقدان احترامك للصحافة ؟؟

ـ لا ، قلت لها : عندما تكون المحنة واحدة لا أستغرب أن يكون رد الفعل واحدا .

ـ لكن قطعا هناك اكثر من زاوية للنظر ، ثم يأتي الاحساس باكثر من مسبب واحد . وعليه فطرق الخلاص متعددة . عندما نعلن عنها . عن اختلافها ، ساعتها نلتقي لتضييق المسافة والسير في طريق واحد للحل او نحو الحل . لكن أن نتفق قبل أن نختلف . أو أن نتفق ، حتى لا نختلف ـ وهذا اسلوب صحافتنا اليوم ـ هو بالنسبة لي اسلوب فريد .

ـ ولهذا تبشرين بالعودة للمذياع :

ـ أنا لا ابشر . أنا مجبرة للعودة الى المذياع لأنه يعطيني المادة الخام ، بلا تصفية ولا تكرير ولازينة ، واحيانا بكل ما تحمله من اشواك .

بحدة ردت : تربيتي ، علمي ، ثقافتي تحميني وفجأة هبت واقفة وقالت :

« كم ارجو يا سيد أن لا أكون احدى هذه الاشواك » ألقت باتهامها في وجهي وقالت :

ـ « لقد اخذتني بالكلام ونسيت أنا ، او ربما تناسيت انت ما جئت هنا من أجله » .

ولدهشتي البالغة دنت مني ومدت يدها تصافحني قائلة :

ـ اسمي هند ... اوراقي تحت ذراعك اليسرى ، التقينا هاتفيا بالأمس في حوالي العاشرة والنصف .. قلنا الكثير . قليل من كلامك اذكر ، لكنني اذكر طلبك مني ان ازورك حتى تتعرف عليّ اكثر . وأظن ان مادار بيننا من كلام يكفي للتعارف ، ثم تركت يدي .

تركتني كمن هبطت على رأسه صاعقة ، مأخوذا بغرابة الموقف بغرابة الحديث ، ثم بالتعليق الذي انطلق من فمها انطلاق رصاص من رشاش ضغط على زناده اصبع انسان منتقم لم يتركه

حتى افرغ ما فيه ، واخترق رصاصها مني العين والعقل والقلب . وعمل بي تجريحا ، وأنا اصرخ ، وهي تبتسم . أصابني ذهول غريب وشعرت بكل شيء حولي إلا الألم .

جلست على مقعدي أمام مكتبي ، وضغطت على زر اطلب « استكانة » شاي . كان هذا جل ما استطيع عمله في تلك الأثناء ، لم يكن أكثر من تحرك عصبي .

واستجمعت ذاتي لأقول لها : « اعذري سوء ضيافتي » . لم تعطني الفرصة حتى لكي أتم جملتي ، وقالت : « كان يمكنك أن تضيف ذلك الى نشرة الأحوال الشخصية التي القيتها حال دخولك المكتب » .

ببعض من غضب قلت : اسمحي لي ... قالت نعم ... وفقدت لساني فجأة ، تماما فقدت لساني .

رحم الله اباك يا عبد السميع ، جئت بالشاي في الوقت المناسب ، ولأول مرة أشعر بسيل يغلف غضبي وحرجي وكل المشاعر العجيبة التي انتابتني تلك اللحظة . ووجدت نفسي اعتذر لها عن طلبي للشاي دون سؤالها ، فردت بأنها تكتفي بكوب من الماء ، لو أسمح الآن فقط .. لو أسمح .. من أجل كوب من الماء .. لو اسمح ؟! وضحكت في أعماقي فقط . المرأة تظل هي المرأة تطعنك بالخنجر ، وتقبل عينيك فتختلط في نفسك اللذة بالألم .

تركتها تتم كوب الماء وتشاغلت بالنظر عبر اوراقها ، سبع سنوات في التعليم ، عمرها في الثلاثين وما حولها ، لماذا تترك التدريس ؟؟ وارتفعت حرارة الرجولة الفاضبة في رأسي كم هي حاجتنا للمرأة في مجال التعليم ، إنها حاجة عظيمة ، لكن امرأة اليوم لها نفس قصير جدا . لا تريد من التعليم إلا العلاوة والاجازة ، أما ما عدا ذلك من جهد في تربية النشء فتتركه دائما للهواة . وكلما وصلت الهاوية الى درجة الاحتراف ، بدأت رحلة الهرب . وهذا نموذج انيق امامي .

وتعتمل نار الثورة في تجويف رأسي ، لكنها ترفض أن تخترق غلافه . وبانتظار كوب الماء أن يفرغ ، كنت أبحث عبر اوراقها عن متنفس لحرجي وارتباكي .

وسقطت آخر قطرة من ماء الكوب في فمها فتصاعد عندي احساس مفاجئ بطفولتي ، وتحولت الى تلميذ يقف امام مدرسة لها من الخبرة سبع سنوات ، تمثلت أمامي سبعين سنة .

وبدأنا التجول خلال الروتين السمج ، عبر مسؤوليات الوظيفة الجديدة ، واستعرضنا في رحلة قصيرة جدا الأوراق والمكاتب والبشر . لا أكاد انسى ذلك الطوفان من الأسئلة الذي اجتاح رأسي ومحاولتي القاسية للضغط والسيطرة عليه :

لماذا تترك التعليم ؟؟ هل هو الملل ؟؟ هل هو خلاف ؟ هل هو البحث عن رجل (وابتسم الرجل في اعماقي) .

من دلها على هذه الوظيفة بالذات في وزارتنا ؟ هل هو الوكيل ام الوزير او آخر اكثر نفوذا ؟ وما علاقتنا بأي منهم ؟ ما مدى طموحها ؟

وخيم الرضى على الوجود رغم قلقي وارتياحها . خيم الرضى على الوضع . ستأتي أول الشهر القادم لتحتل البقعة الشاغرة الواقعة على بعد سبعة امتار ونصف من مكتبي ، الباب الثاني من

المنعطف الأيمن .

وانتظرت . وانتظرت . وانتظرت : هل تعرفون كم هو مر هذا الانتظار ؟؟ دهورا انتظرت ، كنت فيها انسانا آخر غير الذي تعرفونه ، غريب على زوجتي واولادي . جديد على زملائي واصحابي . كان لهذا الانسان صورتي فقط دون المحتوى .. المحتوى كان شيئا آخر ، بركان على حافة الانفجار تعتمل في داخله كتل ملتهبة من المشاعر والاحاسيس مر منها وحلو ، قاس وحنون ، سطحي وعميق ، هكذا كنت أطوي الدهور بانتظارها انظر في المفكرة كل يوم ، لا اكاد اصدق أن الأيام تستنفد كل ما في البط ء من ثقل حتى تمر .

وجاء يوم استلامها للعمل ، بعد دهر جاء . كان بالنسبة لي يوما وصلت به الى نهاية مشوار الانتظار الطويل الذي بدا لي مستحيلا ، ورغم سعادتي وارتياحي لهذا الانجاز العظيم إلا أنني كنت اشعر بتعاسة بالغة العمق وقلق دفين . احسست بثقل هذه التعاسة وذاك القلق على احشائي الى حد الالم الجسدي المحسوس .

عالم جديد أدخله اليوم وأنامل خفية تشد جميع الأوتار من احساسي ، تشدها الى اقصى حد ، صرت اخاف عليها فيه أن تنقطع ، وكم بلغ بي اليأس الحد الذي تمنيت فيه فعلا أن تنقطع وتنتهي المأساة . لكنه قدري أن أعيش هذه المأساة . ما تمنيت رؤية انسان في الوجود كما تمنيت رؤيتها في تلك الساعة ، لا من أجل الرؤية ذاتها ، ولا من اجلها ، بل من أجل كيان رزين عاقل ثابت هزته عاصفة مفاجئة . هذا الكيان لصيق بي واخاف عليه أن يتداعى .

نعم .. تمنيت رؤيتها الى حد البكاء الداخلي الصامت ، تمنيت رؤيتها لعلني بهذه الرؤية انفث بعض السموم التي اصبحت تنهشني من الداخل من اعماق اعماقي

مرت الساعة ، وبعدها ساعة ، وبعدها أخرى ، ولم تأت . طلبني الوكيل لأمر هام ولأول مرة - وما أكثر الأولويات في تجربتي هذه - لأول مرة في تاريخي الوظيفي اترك لشخص ما رسالة بانني عائد بعد دقائق .. تركت هذه الرسالة مع النائب ، مع السكرتير ، ومع المستخدم ، واصدقكم القول أنني تركت هذه الرسالة مع حائط الممر وكل باب مررت به .

- اطلبوا ممن يمكن أن يسأل عني أن ينتظر . سأعود حالا .

كان لقائي بالوكيل أقصر لقاء في تاريخ المهنة ، عدت بعده أحمل وجدي المشتعل الكامن بين أضلعي ، لأواجه به برود وصمت الجدران والأبواب وقد انتقل الى النائب والسكرتير والمستخدم .

الله وحده يعلم كيف مر ذلك اليوم الذي نقلني من دائرة الفضول الى دائرة الحيرة .

ماذا أصنع ؟؟؟

هل أسأل عنها ؟؟ لا يجوز ذلك .

هل أزور مكتبها ؟؟ لا علاقة لي بعملها على الاطلاق .. كيف ابرر زيارتي ؟

لو حدث ، أقول فقط لو حدث وقابلتها - ما أصعب الافتراض !! ماذا يمكنني أن أقول ؟؟ وطفت الثقة بالغة بالنفس على الوجه . قطعا بمكاني أن أقول ألف جملة وجملة .. قبلا ..

كيف وجدت العمل ؟؟ لكنه يومها الأول ، السؤال يبدو سخيفا ، ولأمثالها سيبدو ، سيبدو مضحكا ..

إذن يجب أن أنتظر حتى يصبح لسؤالي معنى .

وشعرت بفراغ كبير حولي صحراء قاحلة . وخلا ذهني تماما من أي سؤال يمكن أن اسألها اياه .. لو .. هذا .. لو صح الافتراض والتقيت بها .

كم هو هم كبير أن تبحث في الفراغ عن موضوع . عن سؤال ، عن جملة ، عن كلمة ، عن أي شي ء تقوله لها ، فقط من أجل أن تبقى معي دقائق لتقول هي دقائق لتقول هي شيئا ، كنت أريد فقط أن أسمعها تقول شيئا ـ أي شي ء .

ـ لله ما أضخم هذه المغالطة !! سماعها فقط .. لا .. كنت أريد أن أراها ، إنني أصرخ اعترافا . كنت اريدها أن تراني ، وأن تحس بي إحساسي بها .

انقضت ساعات الدوام الرسمي ، وها انذا اضيف بتركي للمكتب في تلك الدقيقة أولوية اخرى . هذا النهار لم أعط فرصة للتفكير بمسؤوليتي ولا حتى بازدحام الشوارع ، ولا بالعادة التي قطعتها على نفسي بترك المكتب بعد ساعة كاملة من انتهاء ساعات العمل أقضيها عادة في مراجعة ما يجب مراجعته بهدوء . كل ذلك تهشم اليوم امام رغبتي في رؤيتها .. ربما لقول لكم ، ربما كنت أول شخص يطوي عتبات الوزارة خارجا ذلك اليوم . لكنها نصف ساعة وتزيد ، المدة التي قضيتها بين الخطوة الأولى والخطوة الأخيرة .

لقد سيطر عليّ حس اجتماعي غريب ، كنت اتحدث مع كل وجه مألوف وابلغه ايضا عتبي لغيابه عني ، بكل وجه قابلني ـ بقدرة قادر ـ كان مألوفا . نسيت أن أقدم جزيل شكري لكل من رضي بالحديث معي في تلك اللحظات العاجلة في حياة الموظف ، أشكره على تعطيلي لعلي أراها خارجة ، عندها سوف أستوقفها ، سأقول لها شيئا .. أي شي ء ولكن ...

ووجدت نفسي ابحث عنها في كل مكان ، في رأسي منت ابحث عنها . في كل حركة من زوجتي كنت ابحث عنها ، في كل تعليق من اولادي كنت ابحث عنها كنت ابحث عن ابتسامة وبريق عيون . لا اذكر عنها اكثر من ذلك ، ولا أعرف عنها اكثر من حدة لسانها .

لكنني عاشق هدته رحلة البحث عن معشوقته ، وتحولت الى انسان مسالم غريب في استسلامه ، الأمر الذي جعلني في دائرة الغمز واللمز من اسرتي الصغيرة الهادئة المستقرة . حتى « اللا » أصبحت تزعجني فلبست ثوب الموافقة على كل طلباتهم ، ورغباتهم وحركاتهم ، وعاش أولادي متعة الضوء الأخضر .. ولكن الضوء الأحمر اشتعل في احشاء زوجتي . لم تقل كلمة واحدة ولم أقل انا كلمة واحدة لكن كثيرا جدا دار بيننا مما لا يقال ، حتى ارتفع بيننا جدار اسمه هند .

وهذا احتوتني هند ، عصارة نساء الأرض ، وتمثلت آمالي امرأة تلتحم بي ، اعشقها لدرجة الذوبان . أعيش من اجلها ، لا اصنع إلا ما يرضيها ، أرى الدنيا بعينيها ، بوجودها . اتوه حتى ذاتي .

لكن .. أين ذاك الوجود ؟؟ والى متى يظل عبيرا يحوم حولي ؟؟ وانتظرتها ... انتظرتها طويلا فلم تأت وانتظرت الصدفة أن تأتيني بها فلم تأت ، وحاولت أن أخلق الف صدفة ولم انجح . كل هذا وأنا احترق .

ورحمة بالأضلع الموشكة على التكسر قررت الذهاب اليها الى ، مكتبها . لم أعد قادرا على

الاحتمال ، انني انتحر كل يوم . سأذهب اليها ، سأقول لها كل شي ء بصراحة ووضوح وأترك الأمر لها .

وجمعت أحلى ما في عمري - وهو قليل - حملته بين ذراعي وذهبت اليها . ولدهشتي ، وصلت لم يكن بابها مغلقا .. لكنني طرقته . برفق شديد .. طرقته . وجاء صوتها ليصعد بالدماء ، دماء كل جسدي الى أعلى رأسي .

- نعم .. تفضل .

وأخذت نفسا عميقا لعله يساعدني على الاستجابة لطلبها ودخلت .. لا لا .. اعذروني .. لم ادخل ، فقط اخذت خطوة اخرى الى الداخل وانتظرتها حتى ترفع رأسها .

- هل اغلق الباب خلفي ، ولو نصف اغلاق . لكنه قدر يصدر صوتا يقلقها . ودار رأسي ودارت بي الدنيا وانا أراها تقف ، تبرق عيناها المفاجأة .

تبتسم - هذه المرة - ابتسامة خاصة ، تقف . تفتح لي ذراعها . تحتضنني .. وتأسف عن عذاب سببه لي وتتركني ابكي على صدرها كطفل صغير .

ورفعت رأسها وأعادت جملتها الأولى معكوسة .

تفضل .. نعم



ونظرت في عينيها
أستند بهما أن يرفعا عني
الحرج المخيف الذي احتواني
فلم يستجيبا لي .
وتركتني استجيب لدوار شديد
جعلني أسقط على أول مقعد
واجهني ، ببرود شديد أمرتني
أن أستريح ضغطت على زر ..
.. ما استجاب أحد .
رفعت سماعة الهاتف ، أدارت
القرص ثلاث دورات سمعتها
تقول : علي : في مكتبي أحد
المراجعين ، أظنه يشعر بدوار
أرجو حضورك للتفاهم معه
حتى ألحق بموعد الإجتماع
وغبت عن الوجود كل الوجود

رعـــب التـــلاقـي

بقلم : الأزهر الصحراوي

في محطّة القطار أناس كثيرون يدخلون ويخرجون منهم من يتوقف قليلا لينظر في ساعته ومنهم من يحملق أو يغفو قليلا .... أمّا أنا فقد حالفني الحظّ وتدبّرت مقعدا استرخيت عليه بعدما هدّمني المشي طيلة هذا اليوم الخريفيّ الحزين ولعلّ كلّ الفضل يعود إلى تلك الفتاة التي لم أتبيّن ملامح وجهها فما كدت أقترب من المقاعد الجماعيّة حتّى نهضت على عجل كالمذعورة يخفيها معطفها الأزرق الموشّح بالسّواد وغابت في الزّحام ... تهالكت وقتها على المقعد الخشبي الأملس ورحت أحولُ النّظر من جهة في بهو المحطّة إلى أخرى ... ضحكات امرأة لها فعل المسامير في الرؤوس تنبعث من آخر القاعة فاشرأبت لها الأعناق ..... نوّي وضجيج ينبعث من عجلات القطار الذي وصل المحطّة لتوّه ... رجال أربعة يدخنون ويبتسمون في وجه جماعة من السيّاح ... شاب وفتاة شقراء يسندان ظهريهما إلى جدار المحطّة ويتباوسان ... تمر إمرأة في أرذل العمر فتدعو عليهما بصوت مسموع .... شيخ جاحظ العين اليمنى يجلس بجانبي إستغفر الله تضامنا مع العجوز ثمّ نهض ليساعدها في حمل حقيبتها ... فجأة أنطلق صوت نسائي من إذاعة المحطّة ونبّه إلى قرب إرتحال القطار باتجاه الشّمال فتوجهت إلى الباب المفضي إلى الرّصيف الذي عليه القطار وقبل أن تلج قدمي عتبة الباب الكبير أحسست بكف ترتطم بظهري وسمعت صوتا نسائيا يعتذر ويكرّر الإعتذار ودون أن ألتفت واصلت طريقي وتعمدت إختيار العربة الأخيرة وكنت أحسّ أنّ شخصا ما ما يزال يتبعني ... صعدت العربة فكانت نصف ممتلئة بحثت عن مكان شاغر يقابل اتّجاه الشّمس فأنا من عشاق الغروب وتفتن نفسي بذلك المشهد البديع وقع نظري على المكان المطلوب وتهالكت على المقعد وفجأة همس صوت أنثويّ :

« هل المكان .... المقعد شاغر ؟ »

فأومأت برأسي بمعنى نعم ثمّ تابعت قائلة :

« هل تسمح بالجلوس ؟ »

فأجبت دون أن أنظر إليها : « تفضّلي تفضّلي »

وجلست في طرف المقعد وإنشغلت ذاكرتي قليلا فالصّوت أعرفه جيّدا ... لكنّه صوت من ؟ هذا صوت أعبد فيه الرّخاوة والتهدّج وهذه الثّرنيمة الدافئة .... فكّرت في إرتداء النّظارات لأعرف صاحبة الصوت الجميل لكنّي خشيت إزعاجها فالأصوات تتشابه والأشياء الجميلة تتوجّد في الجمال ... استرخيت على المقعد وأستدرت صوب النّافذة ... مضت عليّ فترة من الوقت وأنا أسترجع شريط ذكرياتي وأحاول جاهدا تذكّر صاحبة الصّوت .... أنساب صوت « فيروز » من إذاعة القطار يترنّم : « يا جارة الوادي ... »

استدرت إلى النّافذة فرأيت ملامح وجهها منعكسة على البلّور فعرفتها وارتبكت وأحسست

بعرق ينزّ من كلّ البقاع في جسدي ... تضاعفت دقّات قلبي وتسمّرت عيناها في النّافذة ثمّ تراخيت بالنّوم ... هممت بتغيير المكان لكنّي تراجعت فذلك هروب وأنا أرفض الهروب وأحاربه ... سكنني وجع لم أعرفه من قبل ... أحسست كأنّي في فرن : حرارة كالحمّى ... عرق وصمت وذكريات كثيرة تتدفّق غزيرة وتأتي من كلّ الجهات لتغرقني ... وقفت لتعلّق معطفها فتأكّدت من أنّها هي « وحيدة » فلون معطفها أجهز على آخر ما تبقّى في ذهني من شكّ فأنا أعرفها تعشق اللّون الأزرق ومعطفها أزرق كحليّ ... كأنّها فهمت إضطرابي وحيرتي فعلّقت معطفها لتأخذني إلى برد اليقين فيروز ترجّع : « لم أدر ما طيب العناق على الهوى ... » تسع سنوات مضت ولم أرها ... لكنّها لم تتغيّر على ما يبدو ... خمس سنوات قضيناها معا ... المهمّ بيني وبينها ودّ قديم وأعتقد أنّ الرّوح ستبعث فيه من جديد فيذكو ويشتدّ ... تدفّق العرق فمسحت وجهي بيدي وقلت في نفسي كالمتسائل : « لماذا تلاحقني بهذه الطّريقة ولماذا تحرص على الجلوس إلى جانبي .. » كنت أحسّ بشيء يشبه الإشتعال في داخلي فكأنّ كبدي تشوى على الجمر .. حاولت أسلّم عليها وأريح نفسي من هذه المعاناة ولكنّي سريعا ما تخلّيت عن فكرتي وأغمضت عينيّ كالمتألّم الذي يعالج جرحا عميقا وأوشك الجدار الحجريّ الذي كان يفصل بيننا يتهدّم حينما لامست يدها فخذي لكنها سرعان ما أبعدتها وهي تعتذر فتظاهرت بعدم المبالاة ... رأيتني متكوّرا ومنكمشا على نفسي غير عابئ بما حدث .... تململت في مقعدها واستدارت إلى النّافذة الأفق طلقا والأشجار تجري وسحابة سوداء تتلاشى ثمّ حوّلت بصرها واستقرّت في مكانها واسدلت شعرها الطّويل على كتفيها ووضعت خدّها على قبضة يدها وأرسلت زفرة منكرة خاثرة كمن أطلق رصاصته الأخيرة وسلّم نفسه للهلاك ....

إسترقت النظر إليها فوجدتها تنظر إلى كتفي تشابكت نظراتنا وتعانقت تعانق عاشقين مفارقين ..فهمت من زفرتها ألف رسالة ... واشتممت منها رائحة رماد ودخان واحتراقات رهيبة ... صرنا أخرسين لا نقوى على الكلام لم تكن لها الجرأة الكافية للمبادرة بالحديث ... صرنا نشكو من الإصابة بصعقة اللّقاء ... سكّير يجيء من آخر العربة يترنّح ويرتطم بالمقاعد ويلامس رؤوس الرّكّاب وهم يضحكون ... السكّير يعربد ويشتم شخصية سياسيّة عربيّة قابلت زعيما صهيونيّا في أوسلو .... أنقذنا هذا الموقف وأنطقتنا شتائم هذا السكّير فقالت :

" السكّير أشدّ صحوا .. " فقلت : « تماما » " ثمّ أضافت وهي تبتسم وتنظر إليّ : والبعيد أكثر قربا " فقلت وقد حلّت عقدة لساني : " قد يكون ... دعينا من ذلك كيف حالك طيلة هذه السّنوات التّسع ؟؟ .. فقالت : « إني كما ترى لم يذهب منّي شيء .. لقد عشت على الذكرى واقتنعت بقدري وكنت أدرك أنّي سأجدك ثانية وها أنّي وجدتك الآن .. إنّ قلبي لم يخنّي ... »

أردت أن أخبرها عن نفسي فقلت وأنا أتعمّد مواصلة الحديث : « أمّا أنا ... » غير أنّها قاطعتني قائلة : « .. إنّي أعرف عنك كلّ شيء ... كلّ كبيرة وصغيرة ... » بهتّ وتوقف القطار وفكّرت في الذهاب إلى المبول ولكنّي تراجعت عن فكرتي .. نزل أغلب من كان معنا في العربة ثمّ تابعت كلامها بصوت مسموع : « موظّف من درجة عالية .. سياسي نشيط في الجامعة .. أصبحت زير نساء لك في كلّ مدينة امرأة أو امرأتان ... إنّك محطّ أنظارهنّ مع أنّك لست وسيما

وليس فيك شيء يحبّ ومع ذلك لك جاذبية وسحر .. » فقاطعتها لأنّ القطار يوشك يتوقّف فاردت أن أتواعد معها على اللّقاء لأنّي أدركت أنّ هذا اللّقاء المفاجئ ليس في حجم ودّنا أو في حجم شوقي إليها وعرفت أنّ ساعة من الزّمن قاصرة على نبش وقائع سنوات تسع وسألتها وأنا أهمّ بالوقوف : « إلى أين تذهبين الآن ؟ سأراك غدا فأنا كثير الشّوق إليك ... اللّه يعلم كيف سأبيت ليلتي ... سوف لن أشتغل غدا سألقاك صباحا ... » فابتسمت وضغطت على يدي وقالت :

« سننزل معا .. » فعادت إليّ حيرتي تأكلني من جديد وقلت كمن يسأل نفسه » هل عيّنوها حديثا في هذه المدينة ؟ أم أنّها هنا منذ أمد بعيد ؟ لا ... لا يمكن أنا أعرف المدينة رقعة رقعة ولو كانت هنا لرأيتها لكنّها قالت إنّها تعرف عنّي كلّ شيء ... هل هي آتية لقتلي ؟ ومن يعرف ؟ فالمرأة حقدها في حجم حبّها ولعلّها حقدت عليّ وجاءت للقصاص ... لكنّي لم أكن معها نذلا لم أخدعها أبدا ... فرّقتنا ظروف مرّة هي الآن ممرّضة ورسّامة حققت أمنيتها وهوايتها في آن واحد ... هي إرتحلت مع والدها النّقابي عندما نقلوه نقلة عقوبة إلى منطقة ريفية في أقصى الجنوب ... لقد كتمت عليّ الأمر وقتها ولم تعلمني بذلك لم تترك لي سوى صورتنا الأولى وهي تضمّني إليها وجملتين قصيرتين في ورقة كبيرة » ... سنلتقي حتما ... حبيبي سنلتقي ... » ناولتني خالتي الرّسالة وقتها بكيتها وترمّدت ... أهملت نفسي وتشرّدت حفظت المعلّقات وبكيت على الأطلال وكتبت أشعارا ومزّقتها وبنيت قصصا لكنّي أتلفتها غير أنّها بقيت فيّ ماردا صامتا يسكنني إلى الآن وها أنّها تفجعني من جديد .. » لاحت لعيوني أضواء المدينة وبدأت سرعة القطار تتضاءل أردت النهوض ونظرت إليها فرأيت دمعتها تنسكب على خدّها وقالت : « هيّا بنا .. » لبست معطفها ونزلنا من العربة ... انتابني وجوم عظيم عندما سلكت الطّريق إلى بيتي أمسكت بيدي وقالت : « سأقضي هذه اللّيلة معك .. ليس لديك موانع ما دمت وحدك في البيت .. » سكتّ واحترت فتلعثمت ... لكنّها واصلت السّير حتّى وصلنا الباب ارتبكت قليلا واضطربت وأنا أضع المفتاح في القفل ... أدرته في الإتّجاه المعاكس ... إقتربت وأدارت المفتاح فانفتح الباب ودخلنا البيت ذرعته غرفة غرفة ثمّ جلست وقالت :

« الليل شديد البرودة في هذه البلدة أتذكر جملتك التي ترددها عليّ كل شتاء : « لن يرحل هذا البرد من عظامي إلاّ إذا دخلت عليّ إمرأة .. »

فقلت وأنا مشتّت التركيز : « ذلك كلام كنت أقوله على سبيل التندر والإضحاك ليس إلاّ ... ثمّ ليست كلّ إمرأة قادرة على الولوج إلى مفاصلي لإستئصال البرد من عظامي ... « نظرت إليّ نظرات لم أفهم معناها وضحكت حتّى استلقت وقالت » . أتذكر رسالة حبّك الأولى إليّ وأنت إبن عشر وثلاث : فقلت : « لست واثقا ولا أذكر الكلمات بالتحديد .. » رمت إليّ برسالة قديمة كانت قد أخذتها من حقيبتها اليدوية مددت يدي وأنا كمن يأخذ شيئا منه قد ضاع ليعيده إلى نفسه فتحت الرّسالة وكانت ما تزال تحافظ على رائحة العطر « وحيدة » أعرفه هو هو لم يتغيّر ؟؟ قرأت وأنا أتأمّل خطّي المعوّج ونظام ورقتي المبعثر فليس فيه من ذوق العشّاق أيّ شيء نظرت إلى القلب الجريح وقد رسمته بنفسي وقربه الوردة الحمراء وقد لوّنت الأحمر فيها بحبر جافّ

أرجعتني دهرا إلى الوراء ... إلى أوّل نبضة في كياني إلى أوّل أطماعي الخارجيّة إلى أوّل امرأة أحببتها .. قرأت : « هذا زمان الحبّ فأحبيّني كما تحبين الخبز الطريّ وملعقة الهريسة عند المساء ... » تذكّرت يالني من صبيّ شقيّ .. سهرت ليلتها طويلا ... مزّقت أوراقا كثيرة وأقسمت بتزار وبالمجنون وبعليّ والحجّاج أن أدمّر فكر حبيبتي الصّغيرة وأن أحرق وجدانها بهذه الرّسالة البتراء ... واصلت الكتابة وقتها ثمّ لمّا أنهكني التمزيق والتشذيب بهذه النّسخة الأخيرة : أي الرّسالة التي بين يديّ على مضض ... تابعت قراءتها : « ... لا تهربي من صهيل كلماتي فخيول الشّهوة تلوك الشكائم وتثير النّقع وهي في الطّريق إليك ... » وقفت ثمّ اقتربت منّي وبحركة أنيقة مغرية خطفت منّي الرّسالة وإعادتها إلى حقيبتها ثمّ غرست أناملها في شعري وقد لاحظت انزعاجي ثم قالت : « قراءة الرّسالة بهذه الطريقة فجور ... سأترك لكل كلّ الرّسائل .. هل عندك أكل ؟ لم أذق شيئا منذ الصباح .. لقد أبصرتك تتسكّع فتبعتك إلى محطّة القطار ثمّ تركت لك المقعد وصدمتك عمدا ... فعلت كلّ هذا دون تفكير مع أنّي أشتغل اللّيلة وغدا ... إنّه لم يعد يهمّني شي ء سوى ذاتي سوى أن أشفى من مرضي ... »

نهضت مسرعا وكانت قد ذكّرتني بجوعي واتجهت إلى المطبخ فتحت الثلاّجة وكنت قد تركت اللّيلة الفارطة نصيبا من الأرزّ المطبوخ وأخرجت نصف بطيخة و بعض الرمّان ومقدار مقلاة من السّمك وشرعت في إعداد العشاء وفي ذلك الحين راحت هي تتعرّف على بيتي وما لبثت أن دخلت المطبخ واتكأت على كتفي وأنا أرمي الأسماك في الزّيت ... أحسست برائحتها الفريدة وبحرارتها وهمست قائلا : « أكتوبت بنار التّلاقي ... » فقالت وهي تطوّقني .. « بل أكتوبنا ... سأخذك حبيبي ونرتحل بعيد إلينا ... » سكتنا وكان بعض السّمك ما يزال في المقلاة والنّار تضطرم ... رجوتها أن أنزل السّمك وأبعد المقلاة على النّار فلبّت وقالت : « دعه يحترق فلنشاهده وهو يترمّد .. » تعانقنا في المطبخ وأنا أنظر في وجهها الصّغير وفي عينيها الباردتين وفي شفتيها التوتيتين المكتنزتين ... تأملت السّمك الأبيض كيف يسودّ ويحترق فيحيل صفرة الزيت و صفاءه إلى سواد قاتم .. امتلاء المطبخ بالدّخان اختنقنا سلعنا ... كنّا كمن يطهّر نفسه من المجوس ليستقبل الموت ... رأفت لحالي فأنزلت يديها وأطفأت الموقد ... دخلنا غرفة النّوم جلسنا على حافّة السّرير طوّقتها ... لم أتمالك نفسي ولم أصمد أمام عينيها وسلطة شفتيها وذبنا في قبلة مجنونة ... كان تلاقينا صفعة مؤلمة لمجاعة طالت وعطش استبدّ وشوق استجدّ وزمن راح يتفنّن في قسوته وكنت أحسّ أنّ عناقنا رجم للبعد وانتصار عبثي على المكان والسّنوات التّسع ... سرى الجنون إلينا فتعرّينا وتعانقنا واقفين ففرّ جدار من جدران البيت وضحكت خزانة قديمة وأحسست ساعتها كأنّي أعانق الكرة الأرضيّة ثمّ إبتلعنا الفراش فأكلنا بعضنا ... أفقت صباحا فوجدت نفسي وحيدا وعليّ لحاف بنفسجي وأنا عار تماما ... نظرت فلم أجدها في الغرفة ناديت « وحيدة » فلم تجبني ... ناديت ثانية وثالثة فلم تجبني قفزت من على الفراش عاريا ورحت أبحث عنها في الحمّام في المطبخ في غرفة الجلوس فلم أجدها فتحت النّافذة المطلّة على الحديقة فلم أجدها عدت فأسرعت بإرتداء ملابسي علّي أدركها في المحطّة وعند الخروج مررت بالمكتب لآخذ بعض أوراقي فرأيت بعضا من رسائلي موضوعة على المكتب وبجانبها ورقة بيضاء كتبت عليها ما يلي « حبيبي صباحك ثوريّ

جوّال . »

لا تنشغل لقد ارتحلت مع الفجر ... سيأكلنا الفراق من جديد ... عناقنا وتلاحمنا كذبة ... ستعود المسافات تفصل بيننا وستنحرنا الأحزان الجديدة .... المكان سجن ونحن سجينان في مكانين بعيدين الجبال قضبانٌ والرّوابي أسوار والمدن أسلاك شائكة والأنهر والمزارع الخضر أمل لقيط لهزيمة الفراق الذي سيقتلك ويقتلني ...

حبيبي أصبت بالعطش إليك فشربتك وارتحلت .... وداعا إلى الأبد . حبيبتك وحيدة .

أحسست ببرودة تسري في مفاصلي ... تهالكت على المقعد تساءلت لماذا تدمّرني بهذه الطّريقة ؟ لماذا لم تترك عنوانها ؟ ... عزمت على البحث عنها في كلّ المستشفيات والمراكز الصحيّة علّني أجدها فأتزوّجها ... لكنّي لا أقدر على ذلك فأنا محاصر بالعمل وإن أنا انقطعت عن العمل متّ جوعا ... ضربت بعنف على الطاولة وتألمت ... رفعت رأسي فوقع نظري على كتاب « شرح المعلّقات السّبع » يطلّ من بين الكتب فسارعت بأخذه وشرعت أذرع البيت غرفة غرفة وأنا ألقي معلّقة « ذي القروح » بصوت مرتفع ... /.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعلم أنّ اللفظ قد يوضع لمعنى مقيدا بقيد يكون ذلك القيد معتبرا في مفهومه ، حتّى لو استعمل اللفظ المذكور في المعنى المجرّد عن ذلك القيد لكان استعماله فيه بطريق المجاز [...] وما شاكل ذلك من فروق ربّما وجدت في غير لغة العرب ... فإذا استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله ، وجاز به عن موضعه . ابن كمال باشا (رسالة في مدار التجوّز في اللّفظ)